أحمد حمدي
قصص
زومبي
ZOMBIE
دار اكتب

٢٣٧٨-٦٩

زومبي

زومبي

أحمد حمدي
الطبعة الأولى، القاهرة 2017م
غلاف: أحمد فرج
تدقيق لغوي: خالد رجب عواد
رقم الإيداع: 2018/ 1571
I.S.B.N: 978-977-488- 542 - 6

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه. أو نقله بأي شكل من الأشكال. أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات. ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا. دون إذن خطي من الدار

دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان: 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة ، مصر

هاتف: 01144552557

بريد إلكتروني: daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها. ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

زومبي

قصص

أحمد حمدي

دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى عائلتي التي وقفت بجانبي وتحملتني حتى انتهيتُ من دراستي

إلى أصدقائي من ساندوني ووثقوا بموهبتي

إلى كل من ساعدني أن أتعلم حرفًا إن كان معلمًا أو عائلتي أو صديقًا

إلى من كل من دخل قلبي ولم يخرج أو أخرجه الزمان

إلى الفشل عدوي الوحيد وصديقي المقرب دائمًا

مقدمة

زومبي هو ذلك الكائن الذي تمَّ بعثه عن طريق نداء كيميائي وليس نداءً إلهيًّا، إنه كان يومًا من الأيام إنسانًا يعيش كما نعيش نحن الآن، ولكن عند بعث هؤلاء لا يكونون كما كانوا بني آدمين بل أشباه بني آدمين، أشباه أحياء، فإذا كان التنفُّس والطعام هو الحياة إذًا فإنهم يعيشون، ولكن ذلك لا يعني أنهم أحياء، إنهم الموتى الأحياء.

الزومبي في الثقافة الغربية هؤلاء الذين قد تحلَّل جسدهم، أو أجزاء من جسدهم ويسيرون بكسل شديد لدرجة أن هناك ما يطلق عليهم الكسالى، يخرجون كما تم دفنهم بملابسهم، ولكن السؤال الذي يحيرني: هل إذا كان هناك زومبي في مصر أو أي دولة عربية إسلامية سيكونون مثل هؤلاء الزومبي الغربيين؟

أعلم أنك لم يخطر ببالك ذلك، أو قد يكون قد خطر لك الفكرة، ولكن قلما نسعى لتقديم أفكارنا لمن حولنا، كانت مجرد فكرة عابرة بعد مشاهدة أحد أفلام الزومبي.

ولكن الزومبي ليس هو الإنسان الذي تم إحياؤه فقط، لأن كل مَن يَدفن بداخله مشاعر ومخاوف لا يريد إظهارها، فهو زومبي.

كل يوم نقابل في طريقنا زومبيًّا، صديقًا أو صديقة، أخًا أو أختًا، ستجد بينهم زومبيًّا، ولكنه يريد أن يعيش فقط لأن الحياة بالنسبة له أعظم من تتوقف لمجرد أنه دَفَنَ جزءًا ما من مشاعره بداخله.

ستجد هناك مَن فَقَدَ حبيبته وأصبح يعيش لمجرد أن أَجَله لم يأتِ بعد، ولكنه في نظر نفسه قد مات عندما تركته، كلنا زومبي، فكلنا لدينا ذاك الشيء الذي ندفنه بداخلنا ونسير أشباه أحياء، أو كالموتى الأحياء...

لا تخف تلك المجموعة خالية من الرعب، وإن كان هناك قصة وحيدة، وذلك حتى لا أخيب ظن من رأى الغلاف فاشتراه لمجرد أنه يحبُّ الرعب، أحذر فإنك ستواجه أعظم رعب في الكون، إنها مخاوفُ الآخرين، قد تتعلَّم منها، وقد تجدها إحداها بداخلك، فلا تخف ولا تُطفيء النور؛ فإن المجموعة القصصية من أجل تسليط الضوء على تلك المخاوف والمشكلات وليس دفنها بداخلنا.

فالواقع وإن كنا نستطيع العيش فيه لكنه في الوقت نفسه يُمثِّل أكبر مخاوفنا، فيعتبره البعض القبر الذي ندفن فيه تلك المشكلات، ويعتبره آخرون محطةً من محطات الكون الذي لا بد أن نمرَّ عليها للوصول للآخرة...

ابدأ رحلتك الآن في عالم الواقع المليء بالزومبي الحي، وابحثْ عنهم قد تجد نفسك أحدهم وأنت لا تعلم، أبحر في بحر المخاوف حتى تهدأ روحُك، فالخوف لا بد من مواجهتِه حتى إن كان عظيمًا.

المجهول.. ظلام

صباح جديد..

استيقظتُ كالمعتاد على أذان العصر، ولكن غير المعتاد هو أن أكونَ محبوسًا داخل قطعة من القماشة الضيقة، قادرًا على تحريك يدي في مسافة قليلة، صوتُ الأذان بعيد، وليس بالقرب من نافذتي.

هل ذلك مجرد كابوس؟ أم أنا فاقد لحاسَّة السمع؟

ولكن لماذا أنا محبوس هكذا؟!

بدأت أتدحرج محاولًا قَطْع ذاك الحبل أو تلك القماشة الكبيرة التي تغطي جسدي، ولكن ما أفزعني وكنتُ غير مُنتبهٍ له أن جسدي كان عارٍ تمامًا كما خرجت من بطن أمي، وأكثر ما زاد من فزعي ذاك الظلام من حولي الذي جعلني كالأعمى..

إنه ظلام حالك.

***

– ما أكثر ما يُخيفك يا حبيبي؟

هكذا سألتني دون مقدمات، ونحن جالسان في عربة الزفاف فنظرتُ إليها قائلًا:

– إني أخافُ من الظلام، ولكن الآن أنتِ معي فلن أخاف أبدًا.

***

بعد عدة تدحرجات مؤلمة لبعض الأجزاء من جسدي العاري، خصوصًا لوجود أشياء صغيرة كالحجارة ذات السنون..

يا له من عذاب! ظلام وجسد عارٍ وأحجار على هيئة دبابيس.

في أثناء تألمي، ومحاولتي الخروج من ذاك الوضع الصعب استطعتُ أن أمسك بشيء مدُبَّب، وصلب.. أمسكته بصعوبةٍ بسبب تلك القماشة الضيقة التي تجعلني أُحرِّك يدي في حدود بسيطة.

***

عندما أصبحنا بمفردنا،وانصرفت الجماهير،خلعتُ ملابسي الرسمية وارتديتُ قميصًا ضيقًا، وبنطالًا قصيرًا لكي أظهر عضلات يدي وصدري.

نظرتْ لي بابتسامة على شفتيها تدلُّ على مدى إعجابها بي قائلة:

– ما أكثر ما يُميِّزك عن باقي الرجال؟

قلتُ لها بكل ما أوتيتُ من شجاعة:

– لن تجدي أحدًا يستطيع أن يهتمَّ بكي وأن يجعلك تعجبين به كما فعلتُ، وسأفعل دومًا.

أعجبها جدًّا ردِّي، ودخلت لغرفة النوم تاركةً وراءها الباب شبه مفتوح، وكأن ذاك الحيز من الفراغ يدل على مدى شجاعتها.

***

بدأتُ بتقطيع القماش كي أستطيع الخروج، وعندما خرجتُ وجدت نفسي ممسكًا بنصف عظمةٍ وكأنَّ هناك من كسرها، وكانت القماشة مجرد كفنٍ...

كل ذاك عرفتُه لأني دكتور عظام،وأعرف تمامًا كيف يكون شكل العظام، وليست تجربة أولى لي في إمساكها، فعملي طبيبًا جعلني كثيرًا ما أقتحم المقابر، طمعًا في عظام؛ ولذلك لم أرتعدْ من فكرة أن أكون داخل القبر، مع ذلك أكثر ما يُخيفني ذاك الظلام الذي يحيطني كالهواء.

أمسكتُ الكفن واستطعتُ أن أصنعَ منه ما يُستر عورتي، وشعرتُ حينها أني أصبحتُ كطرزان...

***

– لقد سمعتُ أن الكثير من الأطباء يتزلون للمقابر بحثًا عن جثة لتشريحها.

– أجل.. إنها إشاعة صحيحة من وسط تلك الإشاعات التي تملأ حياتنا يوميًّا.

– هل نزلتَ إلى هناك؟!

– نعم، ولكن لم أنزل من أجل الجثث حديثة العهد، بل من أجل الجثث المُحلَّلة لكي أستطيع استخلاص بعض العظام منها، ودراستها جيدًا.

***

عرفت من الوهلة الأولى أني داخل مقبرة العائلة، وأن تلك العظمة قد تكون لخالي الذي مات فترة، ولكن لا أعلمُ لماذا هي مكسورة هكذا؟!! وهل دخل زميل جديد باحثًا عن عظام كما كنتُ أفعل عندما كنتُ طالبًا؟!

صمتُّ وبدأتُ في البحث عن مخرجٍ، وأول بحثٍ لي كان اصطدامًا في حائط، وذلك ما جعلني أتذكَّر قصص والدي عن المارد الطويل الذي يمنعك من المُرورَ، جفَّت الدماء في شراييني، ثم تحولت لسيل من المياه يخرج بكثرة من كل جزء في جسدي خصوصًا الجزء السفلي.

ولكنه كان مجرد حائط، بحثتُ كثيرًا عن المخرج حتى وجدته، وخرجتُ مُتحسِّسًا الحائطَ، مُتوقعًا أني سأستمعُ قريبًا لصوت، أو سيمسك يدي أحدهم، وكل تفكيري في ذلك حتى أني أرتعدُ خوفًا، فالظلام يجعلك دومًا تخاف لأنه مجهول ولا تعلم ماذا ستقابل أو ماذا ستواجه في الخطوة المقبلة؟

***

– حبيبي لا تُكثر من الحلويات فإنها ستسبب لك غيبوبة بالتأكيد أنسيتَ أنك مريض؟!

– لا لم أنسَ، ولا تخافي لن يُصيبني مكروه.

– أتأكل حلويات وأنا موجودة؟!

يضحك بصوت عالٍ ثم يقول:

– سيدتي هذا من أجل أن أعرف أن كل الحلويات الموجودة لا تستطيع أن تُقارَن بجمالك أو حلاوتك.

***

دَقٌّ منتظم على باب الخروج لكي يستمع أحدهم لنداء مسجون لم يرتكب أي جريمة، نداء من معتقل في الظلام لا يريد إلا حريته وأن يرى الضوء مُجدَّدًا، نداء استغاثةٍ من شخصٍ تحدَّى الموت والظلام والمجهول من أجل أن يذهب للحياة التي تركها غضبًا وعدوانًا...

دقٌّ منتظم من أجل الهروب، من أجل أن أُكملَ حياتي كما أرادها الله،دقٌّ منتظم من أجل المعرفة،والعلم بما يحتويه ذاك الظلام والمجهول.

شعرتُ أن الوقت يمرُّ ببطء شديد، تبًّا للنسبية، وتبًّا للزمن ألا يمكن أن يتحكم أحد بالزمن أم ذاك فقط من قدرة الله ونحن غير قادرين على ذلك لأننا مجرد مخلوقات؟!

بعد فترة من الزمن أشعر به أنه طويل، وبعد أن انهارت قوايَ من محاولاتٍ بائسة من الهرب والصعود للقمة المضيئة أعلى الدرج أو الدرك فلم يعد يهمني ما هو قادم، ولكن ما أعلمُهُ أني سأموتُ عاريًا عمَّا قريب، ولا يغطيني حتى كفن...

هل سيحدث لي ما كنتُ أفعله بتقطيع الأكفان لمن لم ينقطع كفنه؟ أكنتُ أقومُ بدور المُعذِّب وأنا غير قادر على ذلك؟

شعرتُ بأن هناك صوتًا آتيًّا لا أعلمُ هل هو من الظلام حولي أم أن هناك مَن سمعني؟

***

– حبيبي لا تُقلقني عليك.. ألم أقل لك لا تُكثر من الحلويات؟!

نَظَرَ إليها وكانت عيناه تمتلئان بالحب والحنان، وكأنه كان يشعر بالفراق، ولكن النظرة لم تطل، فانغلقت عيناه عن الضوء.

– حبيبي.. استيقظ لأني لن أستطع العيش دونك.. سأموتُ لا محالة؟

***

لا أحبُّ الظلام.. لا أحبُّ المجهول.. لا أحبُّ شيئًا مُخيفًا.

يا الله أنقذني، وكفي عذابًا فأنت الرحيم، فإن لم ترحمني فمَن يرحمني يا رحمن يا رحيم؟!

كانت كالصرخة، ولكن بلا صوت، ولكنها كانت أعلى من صوت دقٍّي على الباب، فاخترقت السموات السبع، ونَزَلَ ضوء يتسرَّب بسيطًا حتى اخترق الظلام وأضاء كل شيء من حولي..

استمعتُ حينها لصراخ وزغاريد تملؤها دموع، وأناس كثُر يحملونني، وعصائر تأتي لي من كل حدبٍ وصوب، وكأنهم غير مصدقين ما حدث، مع ذلك كانت أعينهم تمتلئ بحزن شديد لم أرَه يومًا.

الجميع يرتدي ملابس مُوحَّدة بلون الظلام والمجهول، وكأنه أصبح لون الموت، أعينهم الخائفة زادت خوفي من ذاك اللون، ومن ذاك المجهول، شعرت أن هناك شخصًا آخر يريدون وضعه بالأسفل، شخصًا ما لن يكون محظوظًا ويستطيع الهرب كما هربتُ أنا..

ولكن شفقتهم التي تملأ أعينهم جعلتني أقفُ ذاهبًا لذاك التابوت محاولًا التماسك، محاولًا ألا أقع، فما زلتُ أشعر بدُوار شديد، مع ذلك استطعتُ الوصول بعد أن أمسكني بعض الرجال، وعندما وصلتُ هناك رفعت غطاء التابوت، ومن ثم فتحتُ الكفن لأرى مَن مات.

***

– حبيبي.. بعد أن أموت أستتزوج غيري؟

– إن كنتِ لن تكملي معي حياتي القادمة فذلك يدفعني لأستغلَّ كل ثانية معكِ الآن حتى لا أندمَ يومًا أني لم أفعل ذلك.

– أيعني أنك لن تتزوج؟!

– يعني أني لم أرَ امرأة أخرى بعدك، فكل النساء ستموت بعدك.

***

كانت حبيبتي، قد حاولت فتح الكفن أكثر حتى أستطيع أن أوقِظَها، ولكن الجميع بدأ يصرخ فيّ، وبدءوا في جذبي بعيدًا عنها، ولم أستطع إلا إخراج يدها اليسرى، التي كان بها جُرحٌ يدلُّ على قطع الشرايين...

حينها تيقنتُ أنها لن تستطيع الهرب كما هربتُ، ولا أعلم لماذا تحوَّلت الجنازة في تلك اللحظة لرجالٍ كُثُر، حتى من يصرخ كان رجلًا.

أدخلوا رأسها المبتسم، ويدها للكفن مرة أخرى، وأنا جلستُ أُودِّع أجمل نساء الكون، وزوجتي وحبيبتي وأمي وابنتي.

خطأ بسيط قد يكلفك حياة أغلى ما تملك..

ولكن إن لم تُقطع شرايينها، لكنتُ الآن مسجونًا في الظلام.

ما أصعب ذاك الاختيار القاسي! وما أصعب القدر!

الانتظار

ما أصعب أن تنتظر شيئًا،ولا تعلم إن كان سيأتي أم لا! والأصعب من ذلك أنك تنتظر الموت، فالموت لا ينتظره أحد بل إنه هو من ينتظرنا.

***

رآها من بعيد مرتدية ذاك البنطلون الضيق، وعليه تيشيرت واسع نوعًا ما، وشعرها مفرود، ومحتضنة ذاك الكشكول في يدها، وكأنها تريد أن تخفي مفاتن جسدها، اقتربَ منها وبدأ يتفحص كل تفاصيل جسدها الذي لا يحتاج لمجهود؛ لأن تقريبًا كل تفاصيله ظاهرة بسبب تلك الملابس، واقفة على رصيف المترو منتظرة القطار القادم، ولكنها لا تقف عند عربات النساء بل إنها واقفة عند العربة الأخيرة في القطار.

بدأ يسبح في خياله، ويغرق في أفكاره الخبيثة لدرجة أنه أصبح يتنفس بصعوبة من قوة خفقان قلبه، وأصبح صوت نَفَسه المتسارع مسموعًا لمن بجانبه، وكأنه كلبٌ أرهقَه السعيُ وراء فريسته، وتحوَّل الخيال لخطواتٍ يريد أن ينفذها، فإن عمره يتجاوز الخمسة والثلاثين عامًا ولا يجد بعد مصدرًا ثابتًا للدخل لكي يستطيع أن يتمتع بتلك المتعة التي يريدها بالحلال، فأصبح يومه المعتاد أن يسرق المتعة عن طريق لمسة أو التصاق جسده بجسد أي فتاة خصوصًا في المترو، وبدأ يحسب الخطوات جدًّا عندما سيأتي القطار سيدخل وراءها قريبًا منها لمسافة كافية ليشمَّ عِطرها، ومن ثم عند نزولها لمحطتها التي ستكون مزدحمة وخصوصًا في مثل ذلك الوقت، ولم يتوقف تخطيطه لذلك، بل إنه بدأ يتخيل ردة فعلها حتى يكون مستعدًّا لها، حتى إن صفعته فتلك تُعدُّ ضريبة بسيطة بالنسبة للمتعة التي سيأخذها بعد قليل، ولكن ما أجمل أن تصمت! سيكون ذلك كأنه كتر له لأن المتعة ستكون مجانًا، والمجان دائمًا ما يكون له متعته الخاصة، لكن ما أجمل أن تُعجب بشيء وتُنفِّذ كل تخطيطك حتى تنال ذلك الشيء إن كان بطريقة شرعية أو غير شرعية! ولكن الأهم في تلك اللحظة بأن تناله غير مكترثٍ بالطريقة، فالأهمُّ امتلاكه ذلك الشيء.

خياله لا يريد أن يتوقف، وكيف يتوقف بعد أن وصل لتلك المرحلة من البحث عن المتعة على أرصفة القطارات بعد أن كان المفترض أن يكون أبًا الآن؟! مرحلة من الصعب أن تتخيلها أو

تتوقعها أن تحدث له، إذا كنت تعرفه من فترة ليست بطويلة، ولكن مَن منَّا لم تُغيِّره الظروف والأقدار التي تجعلنا نتغير مئات المرات ونرتدي مئات الوجوه على وجهنا حتى نتوه وسط ازدحام الأفكار والاعتقدات التي أصبحنا نؤمن بها ولا نعرف أين كنا أو كيف كنا؟

لا يعلم لماذا في تلك اللحظة تذكَّر حبيبته التي كانت له الأم، والأخت، والزوجة؟ فقد فعلَ كل شيء معها، وعاش معها مِلء أيامه السعيدة والسعادة في ذلك الزمن أصبحت صعبة، ولكن كما هي نهاية كل حكايات الحب في بلادنا الحبيبة تنتهي الحكاية مع التخرج في الجامعة، وكأي متخرج أصبح حاصلًا على شهادة "على ما تُرزق" ويعمل مندوب مبيعات، ومن بعدها عامًا بعيدًا عن العالم داخل أسوار القوات المسلحة يجعلك قويَّ العود، يصنع منك رجلًا يصبر على الهمِّ وكأنهم يدربونك على الحياة الواقعية التي ستعيشها شئتِ أم أبيت.

ومع ذلك خيالاته لم تتوقف بل كان يتذكر كل المتع المسروقة التي سرقها من ضحاياه، وبدأ ينظر في الساعة منتظرًا للقطار القادم والذي تأخر كثيرًا، ولذلك يكره الواقع لأن المواعيد دائمًا فيها تختبر صبرك لدرجة أنك لا تستطيع أن تتحمل، أفكاره المتسارعة التي جعلته أكثر توترًا، يتحرك في مكانه وكأنه لا يتحمل الوقوف ساكنًا، ويدور ويقترب منها ويهمس تارة، وتارة أخرى يرفعُ صوته محاولًا جذب انتباهها.

ينظر مرة أخرى إليها، إنها فتاة جميلة، وقلما يجد واحدةً بذلك الجمال الطبيعي دون أي إضافات من أي نوع، ولا أحمر شفاه، ولا شيء على الخدين، مجرد بشرتها، قد تكون واضعة كريمًا على وجهها الأبيض حتى تحميه من الشمس.

ينظر في ساعة يده، الوقت يمر ببطء شديد، كل ذلك مجرد دقيقتين، ما أصعب النسبية الآن! لماذا النسبية دومًا ضدنا؟ ولماذا لا تكون معنا؟

أي شخص يفهم نظراته إذا نظر إليه، تلك النظرات التي تخترق كل قواعد الأخلاق والعفة والحياء لدرجة أنها تكاد تمزق ملابسها من عليها، نظرات حيوان مفترس جائع لفريسته المُفضَّلة، بالضبط كنظرة ضبع جائع لغزال ولكنه خائف من ردة فعلها فهو لا يستطيع أن يهجم على فريسته بمفرده، فلابد من مساعدة قطعية من قوانين، وعادات، وتقاليد، وعُقدٍ لا تنتهي، وضعها لنا الزمن وفرضتها الأمية والجهل المنتشر في كل مكان كالطاعون.

يقترب من حافة الرصيف الذي بدأ بالازدحام بالفعل، ينظر إلى نهاية القضيب، وكأنه ينادي القطار بنظراته، فقد أصبح لا يستطيع الصمود أكثر من ذلك، وكأنه يُشوى على نار هادئة، فالوقت كالسيف إن لم تقطعه مزَّقك، في تلك اللحظة تيقن من تلك المقولة بل آمنَ بها.

لم تنتبه لكل الناظرين إليها بشبق، كانت تفكر كيف لذلك الشخص أن يضع يده على جسدها، ألا يعلم كم تحبُّه؟ ألا يعلم كم كانت ستضحي من أجله؟ ولكن مع ذلك هذا ليس مبررًا بأن يفعل ما فعله، فإنها من الممكن أن تفعل أي شيء، ولكن ذلك الشيء لا يمكن، أنها مؤمنة بأن ملابسها قد تكون غير مستحبة، أو لا بد أن تغيرها يومًا، ولكنها ما زالت مراهقة تريد أن تعيش حياتها، وتُظهِر أنوثتها، إن لم تظهرها وتفرح بها تلك الأيام فماذا ستفعل عندما ستكون أمًّا ويزداد وزنها؟ ماذا ستفعل عندما يضيق صبرها بسبب كثرة بكاء الأطفال، وتحمل المسئولية، وحمل الهموم، ويقلُّ جمالها؟

تمسك دموعها بكل قسوة، تقسو على نفسها حتى لا تضعُف فإنها من النوع القاسي جدًّا الذي لا يبكي إلا أمام نفسه، وأحيانًا يتكابر أن يبكي حتى أمام نفسه، لأنها فتاة حديدية كما يصفها الكثير من أصدقائها، هي فتاة تربَّت على أن تعيش كما تريد وليس كما يريد الناس والمجتمع، تثق بجمالها ولكنها لا تتباهى به.

تحاول أن تتذكَّر كل مَن حاولوا الدخول لحياتها فلا تتذكر سوى أشباه الرجال الطامعين في جمال جسدها، لا أحد يحبها لنفسها، حتى أبوها وأمها دائمًا في مشكلاتٍ معها، ولكن مع ذلك هل ذلك مبرر أن أمها لا تحبُّ أباها؟

وهل ذنبها بأن أباها زير نساء؟ وأنه لا يثقُ بأي سيدة، مهما تكن قريبة منه.

أسئلة كثيرة تقتحم أفكارها مثل هؤلاء الذين يقتحمون خصوصياتها بنظراتهم الخادشة بل القاتلة لكل حياء موجود في الكون.

تريد أن يكون معاها مسدس مليء بالطلقات وتبدأ بإطلاق النار عليهم حتى يختفوا من حياتها.

أثناء ذلك بدأ أحد هؤلاء المتطفلين يقترب منها وينظر لها بنظرات قاتلة، ويهمس لها، بدأت تشعر بأن حدود خصوصيتها تم اختراقها، ولم تعد في مأمنٍ، فالإنسان لديه حدود أمان من بين جسده وبين أي كائن حي يقترب منه، مع ذلك لم تكن خائفة وتحدَّت ذاك الإنسان، ثم نظرت له في تحدٍّ ولكنه لم يَخَفْ.

هل ماتت الرجولة؟

هكذا قالت لنفسها.

وفي وسط ذلك بدأت تلك الأفكار تأتي لها من حيث لا تدري، كأنها غيوم تظهر فجأة وسط سماء صافية لتعلن عن ظهور عاصفة مليئة برعد وبرق، وكانت الأفكار عبارة أنها لا بد أن ترتاح ولا راحة من الحياة سوى الموت، فإنها قد خسرت كل شيء، لم يعد لديها ثقة بأحد، خصوصًا أنها أعطت كل الثقة والأمان لذلك الشخص طلبًا منها في إيجاد القشة لكي تنقذها من الغرق، ولكنها لم تكن سوى

قشة، لم تفعل شيء بل قد تكون ساعدتها على الغرق أكثر، لأن الأمل وإن لم يكن قويًّا فأنه يكون أساسًا قويًّا ليأس لن ينكسر أبدًا.

واليأس الذي يُولدُ قويًّا يكون بداية للكفر بالله، وفقدان الثقة به، تريد أن تبكي، ولكنها لا تجد دموعًا، تريد أن تصرخ، ولكنها لا تجد صوتًا، تريد أن تجري ولكنها لا تجد مكانًا، وكأنها أصبحت سجينة، سجينة لأفكارها، سجينة لحياة لم تختارها ولا ترى مخرجًا منها، وكأنها كانت في حرب وتمّ أسرُها وسط معركة بينها وبين الحياة.

أصبحت لا تثق بهؤلاء الذين من المفترض أنهم خُلقوا كي يحموها، إنها تشعر بالمتناقضات كلها في الوقت نفسه، تنظر إلى قضيب القطار وتفكر أن تقفزَ، ولكنها لا تقفز، تنتظر الاستماع لذلك الإنذار الذي ينبه لوصول القطار مع صوت المذيع الداخلي بالابتعاد عن حافة الرصيف خوفًا على نفسه، وعلى السائق من المسؤولية، وليس خوفًا على روح البشر، لأنهم بالنسبة لهم أرخص من أن يخافوا عليهم.

تنظر في الساعة وتندهش بأن كل ذلك مجرد دقيقتين، الرصيف أصبح مزدحمًا، ويزداد ازدحامًا مع كل ثانية تمرُّ، وبدأت تستمع تلك الكلمات السخيفة التي تستمع إليها يوميًّا، تلك عربة الرجال، اذهبي لعربة النساء، وكأن الرجال احتكروا كل شيء، ولا بد من النساء أن يجلسن في البيوت، ألا يعلموا أن الحكومة أنشأت عربة السيدات للحدِّ من التحرش، ومع ذلك يتحرشون ويضحكون وكأنهم لا

يفعلون شيئًا، وكأنه أمر اعتيادي كتبوُّلهم صباحًا ومساءً أو كتنفُّسهم، أو كأن التحرش أصبح بديلًا لعاداتهم الخاصة والسرية.

تنظر في ساعتها لم يمر سوي ثلاثين ثانية فقط، إزداد غضبها ليس من هؤلاء بل من أن قطار الموت لم يأتِ بعد، وكأن الموت يأبى أن يريحها هو أيضًا، ألا يكفي أن الحياة لا تُريحها، وكأنها تتمسك بها ولا تريدها أن تذهب.

كلٌّ منهما ينتظر القطار، الذي يقف من بعيد قد يظنُّ أنه قطار واحد، ولكنه في الحقيقة ليس قطارًا واحدًا، أحدهم يراه قطارًا للمتعة الحرام المُمتليء بالسرقة، بل إنها أقذر أنواع السرقة، إنها سرقة مشاعر فتاة ونفسيتها، وتدميرها داخليًّا، فتجعلها كارهة للحياة.

والآخر قطار الموت حيث تتحطم عليه آمال فتاة كانت تريد أن تعيش عيشة كريمة، بلا خوف، بلا أمراض نفسية عديدة، بلا أن ترى دائمًا تلك النظرة في أعين الرجال بأنها أقل منهم.

الإنذار يُدوِّي من فوقها، الجميع يتأهب، وذلك الفتى يتأهب، وهي تتأهب.

الجميع مستعدٌّ لانتظار قطاره.

***

فرقع لوز

تعوَّدتُ مع أبناء الجيران أن نجتمع بعد صلاة الظهر لنلعب حتى بعد المغرب يوميًّا، كان اللعب يملؤه الحب والصخب والمغامرات والشقاوة.

ما أجمل إجازة الصيف! ولكن ما يزعجني حقًّا في تلك الإجازة هي ذاك الفتى الطويل، كان صديقًا لِيّ بل إنه كان من أعز الأصدقاء ولكن تميُّزه في كل شيء يثير احتقاني، ويُغضبني، وذلك ما يجعل هناك مشاجرات عديدة بيننا.

أردتُ دومًا بأن أتميّز عنه، ولكنه لم يُعطِني الفرصة، ولم أجد شيئًا أستطيع أن أتميز فيه، فدائمًا يهزمني في مباراة كرة القدم، يهزمني في الليدو، والسلم والثعبان، والدومينو، حتى ورق الكوتشينة، ولا أجد شيئًا أستطيع حتى مجاراته فيه، إنه مُتميِّزٌ جدًّا، وذلك ما يجعل الإجازة تمتلئ بالمشكلات، ويُشوِّه جمال إجازة الصيف.

في أحد الأيام، كنا نجلس قبل المغرب بقليل أمام أحد البيوت القديمة الخاوية من أصحابها،وكنا نحكي لبعضنا البعض بعضَ الحكايات التي تخيفنا عن العفاريت والجان، وكنا نعلم حينها أننا جميعنا نكذب، ولكن مع ذلك كنا نشعر بشيء من الخوف، وعندما كنت مندمجًا في حكايتي، وكان الجميع مبهورًا بالحكاية ومُركِّزين جدًّا، صَعَدَ ذاك الصوت الذي مزَّق نسيج حكايتي كاملة عندما قال:

"فرقع لوز".

اجتمع الجميع حول "فرقع لوز" الذي أمسكه ذاك الطويل متباهيًا به، وكأنه أمسك كأس العالم، أو أخذ دوري أبطال أفريقيا، وبدءوا يتباحثون حول ما سيفعلون به، اقترحَ أحدهم أن نجعله يقول الساعة، وقال الآخر ولِمَ لا نجعله يعدُّ للعشرة.

وافق الطويل على الرأيين حيث قام بالضغط على الطرف الخلفي لتلك الحشرة الغريبة، وبدأت بالفعل بالعدِّ حيث قرَّر في البداية معرفة الساعة، وبعد أن عَدَّ حتى السابعة ذهبنا لسؤال أحد المارَّة الذي قال لنا إن الوقت الآن السابعة مساء، الجميع يصفق له وكأنه ساحر عظيم، وبدأ يطلب الهدوء من الجمهور لكي يجعل تلك الحشرة تعّد للعشرة، وبدأت بالفعل الحشرة بفعل ذلك وبعد انتهائها من العد كان أذان المغرب انتشر في كل مكان ليعلن أن اليوم قد انتهى.

عندما رجعتُ للمترل لم أهدأ، وقرَّرت أن أجد شيئًا ما يُميِّزني عنه وعن الجميع، وعندما لم أجد شيئًا جديدًا يُميزني عنه بدأت أفكِّر في عِراك بيني، وبينه مع أنه أطول مني بكثير، ومع ذلك فإن الأفكار من تلك النوعية لم تتركني بمفردي.

فقبل أن يكون هو زعيمًا لمجموعتنا كنتُ أنا قائد المجموعة، وكان الجميع يحترمني، وكان الجميع يراني شيئًا مميزًا لا يقلُّ شيئًا عنه بل كنت أكثر تميزًا منه، مع ذلك أصبح هو الآن أكثر تميزًا بعد أن أصبح طويلًا فجأة، حيث يقول الأصدقاء شيئًا عن البلوغ، وعن أشياء لا أفهمها.

بعد أن انتهيتُ من الاستحمام المفروض عليّ يوميًّا بعد أن أرجع من الخارج،والتهمت غدائي بأكمله،دخلت لغرفتي باحثًا عما أستطيع فعله أمامه، باحثًا عن التميُّز، وعندما ملَّ عقلي من كثرة الأفكار نمت على السرير محاولًا كتم دموعي من أن تخرج من مقلة عيني.

وفي وسط الصمت والهدوء سمعت صوتَ طرقعة لم أنتبه له في البداية، ولكن تكررت بعد فترة وبدأت عيني تبحث عن مصدر ذاك الصوت حتى وجدتُه، ولم تصدق عيني نفسها، إنه "الفرقع لوز".

فرحتُ جدًّا وقرَّرت أن أبدأ تدريبي معه لكي أستطيع أن أجعله يعدّ للعشرة، وأن يقول الساعة، ولكن المشكلة كانت في كيفية إمساكه وكان صعب المنال، وبعد فترة طويلة من محاولات يائسة

استطعتُ أن أمسكه قبل أن يهرب وهو خارج من أسفل شيش النافذة.

بدأت أفكر في بداية تدريبي وكيفية البدء، هل أبدأ بالساعة أولًا ثم العدّ أم ماذا؟ ولكني قرَّرت أن ابدأ بالعشرة، وبعدة محاولات فاشلة لم أستطع الوصول لرقم تسعة قط، وذلك ما جعلني أشعر باليأس، ولكني حاولتُ مرة أخرى، ولكن في عدّ العشرة، وبالطبع كانت النتيجة كانت مثل غيرها الفشل.

بدأ الغضب يُسيطرُ عليّ وأمسكتُ بحذائي (الشبشب) وبدأت أضربه بكل ما أوتيتُ من قوة، ولكنه لم يتأثر بذلك، وكأنه يأبى أن يفعل ما أريده مهما يكن حتى لو كان موته، مع أنه لا يوجد من يرضى بالموت أو يريده.

في النهاية أُرهقت جدًّا فتركته ليسير حيث يريد، فلا أستطيع أن أمنعه فليس هناك أكثر من أنك تضرب حشرة ولا ترضى أن تموت.

بدأت أبكي بصوت منخفض ولسبب مجهول الهوية شعر بيّ والدي ودخل غرفتي فرآني في ذلك الوضع، وعندما سألني وجاوبت عليه بدأ يبتسم، وبدأ يبحث معي عن أي شيء يميزني غير أني أملك أبًا وأمًّا يُحبانني جدًّا.

وفي تلك اللحظة رأيته ينظر ليّ قائلًا:

– ألم تكن أكثر الأطفال الذي يملكون موهبة التأليف، ألم تكن كذابًا؟!

نظرتُ له، وكنت حينها أسعدُ طفلٍ في الكون لأنه يمللك والدًا بالرغم من مشاغله لم يتركه يومًا لحزنه.

وقفت مبتهجًا بذلك الاكتشاف أو بمعنى أدق إعادة اكتشاف مواهبي.

وفي اليوم التالي جمعت أصدقائي لأحكي لهم عن "الفرقع لوز الخارق" الذي خرج لي ولم يرضَ عدّ العشرة حتى استخدمتُ سلاحي السري، والجميع منبهر بحكاياتي عنه حتى الطويل كان يجلس منتبهًا جدًّا لما أحكيه من قصص، وشعرتُ حينها أني مميز حقًّا، فليس هناك أحد مميز في كل شيء أكيد هناك شيء ما لن يستطيع أحد مجاراتك فيه.

شربيني

أحيانًا يكون الحقد ظاهرًا في الكلام، ولأننا غير قادرين على فعل ما يفعله هؤلاء الذين نحقد عليهم، نتحدث عليهم بكل ما يفعلون من سيئات، وكأنهم شياطين في الأرض ينشرون الفساد ونحن الملائكة ولكن الحقيقة أننا نحن المفسدون.

***

وقف الجميع في وسط رصيف محطة المترو يضحكون بصوت عالٍ، غير مهتمين بما حولهم من المرهقين وغير قادرين على احتمال ارتفاع أصواتهم.

ثم نظروا في الساعة المعلّقة فوقهم فوجدوها الثامنة والنصف وبضع دقائق، وكان الرصيف لم يكن ممتلئًا كالمعتاد بل تجد كل متر شخصًا وهذا لا يحدث عادة..

اقترب المترو وأصبحت أضواءه تظهر من بعيد، نظر أحدهم قائلًا في تحدٍّ:

– مين فيكم فيه قلب يدخل عربية الستات دلوقت؟

الكل نظر لبعضه،فالجميع مفتول العضلات،ويملكون تلك الأيدي الضخمة، والأفخاذ العريضة، والصدر الممتليء بالعضلات، والظاهر من القمصان اللاتي يرتدونها.

الجميع يبتسم وكأنهم وافقوا على ذلك التحدي، ولم يستطع ذاك العسكري إيقافهم خوفًا منهم، فإن شكلهم مرعب، ولكنه اكتفي بتنبيههم أن الساعة لم تتعدَّ التاسعة بعد، ولكنهم لم يكترثوا حتى أنهم لم ينظروا إليه، وذلك ما شجَّع بضعة رجال الدخول، وكأن العربة كتر للرجال ويريدون الركوب فيها..

تحرّك القطار خارجًا من تلك المحطة، لم يجدوا مكانًا يكفيهم هم الأربعة، ولم يستطع بعض الرجال الآخرين أن يجلسوا بسبب نظرات السيدات القاتلة، والتي كانت تُظهر مدى ضيقهم مع ذلك لم تخرج منهم كلمة، وكأنهم استسلموا لما يفعلونه.

مع ذلك لم يفرق ذلك مع الوحوش الأربعة الذين دخلوا للعربة وبدءوا بالحديث بصوت عالٍ، وكأنهم يعلنون عن وجدهم داخل العربة منتظرين أي أحدٍ أن يتكلم معهم ليبدؤو في العراك، مما يجعل الرجال يخافون من دخول معهم في أي عراك فقط، بسبب مظهرهم القوي جدًا والمخيف، فما بالك بالسيدات!

وفي وسط الحديث غير المنظم، والذي لم يكن على شيء محدد قال أحدهم والذي كان يقف عند الباب الآخر الذي لا يُفتح:

– فاكرين شربيني؟!.

لحظة صمت، ومن ثم ضحكات عالية، وكأنهم قد استمعوا لنكتة مضحكة جدًّا.

بدأ أحدهم، والذي كان يقف بالقرب من باب الخروج، وكان أقصرهم وكان مرتديًا حذاء بكعبٍ كبير حتى لا يلاحظ أحدهم ذلك الفرق الشديد في أطوالهم قائلًا بصوت عالٍ:

– إيه يا عم اللي فكّرك بيه دلوقت.. ده أندل واحد شفته في حياتي، ده لولايا أنا كان زمانه اطّرد من الشغل، بعد ما دخلت واتكلمت مع المدير وخليته يسامحه، وياريتني ما عملتها.

صمت الجميع وكأنهم يتذكرون فعلته عندما كان سببًا في طردهم من الشغل، ومن ثم بدأ آخر، والذي كان يرتدي جاكيتًا جلديًّا أسود قديمًا وكأنه يريد إخفاء سرواله القديم الذي يغطي الحذاء.. قائلًا:

– فاكرين لما كان بيخلينا ندفعله الأجرة.. أنا فاكر اليوم اللي كان عليّا الدور أدفع، ومدفعتش وقولتله إدفع أنت ونزلت من العربية.. ده بقا جري ورايا لغاية تحت في شارع ناهيا بس إيه ملحقنيش.

ضحك الجميع.

قال أولهم الذي بدأ الحديث:

– ده بقى بياخد 3000 جنيه دلوقت.

نظر الجميع إليه، وكأنهم غير مصدقين.

قال رابعهم والذي كان يرتدي ملابس واسعة لإخفاء بطنه البارز من قلة التمرين، والجلوس بالمنزل:

– ليه يا عم ده كان أوحش جسم فينا، أحلى حاجة فيه طوله بس.

فرد عليه أقصرهم:

– لأ هو جسمه حلو بس مكنش طويل أوي يعني.

فردّ أولهم قائلًا:

– يا جدعان إنتم مشفتهوش.. دلوقت جسمه بقى أحسن كتير من الأول، والصراحة تتقال هو الوحيد فينا اللي مخدش إبر بس ده ما يمنعش أنه fit علينا وخلاّنا نتطرد.

قال ثانيهم:

– نتطرد بس! أدينا مش لاقين حق التدريب حتى عند فرغلي.

ضحك الجميع.

قال أولهم:

– مش فرغلي ده اللي كان بيدرب شربيني عنده ب2 جنيه، ونص في الحصة.

ضحك الجميع مرة أخرى على المبلغ.

اقتربت المحطة القادمة، وحينها وقفت فتاة من آخر العربة مبتسمة قادمة في اتجاههم فصمت الجميع، وكأنهم وجدوا إحداهن معجبة بهم.

وصلت الفتاة التي كانت جميلة وجذابة جدًّا، وأصبح الجميع ينظر لجسدها الذي كأنه مرسوم، وقالت بصوت رقيق:

– السلام عليكم.

قال الجميع بصوت قوي وفي نفس واحد:

– وعليكم السلام.

ابتسمت، وهي تمسح شعرها الذي سقط على عينيها ثم قالت بصوت مليء بالتحدي والرقة:

– أنا سمعتكم بتتكلموا عن الشربيني اللي كان صاحبكم تقريبًا.. وأظن أنه مش واحد منكم.. لأنه في وسط الكلام الوحش اللي أنتم قلتوه عنه محدش قال عنه إنه بيركب عربية ستات قبل ميعاد الرجالة بنص ساعة، ولا كأنه بقا لابس طرحة الخفة.

قالت تلك الكلمات ولم تنتظر ردهم الذي كان يظهر من ملامحهم ورجعت لمكانها في آخر العربة، وسط نظرات بقية السيدات التي أصبحت أكثر عنفًا وشدة من ذي قبل.

نزلوا جميعًا من العربة عندما أتت المحطة ومعهم هؤلاء الرجال الذين تشجعوا لوجود تلك الوحوش.

وأصبح جميع السيدات في العربة ينظرون لتلك الفتاة بنظرة مليئة بالفخر والرهبة وكأنها منقذهن وقدوتهن.

وعندما نزلوا من العربة كان تواصلهم الوحيد هو الصمت، فالصمت هو الحل بعد الكلمات القاسية التي قالتها تلك الفتاة لهم، وكأنهم شعروا بمدى ضعفهم فمع كل تلك العضلات والشحم والقوة لم يستطيعوا مجاراة فتاة.

جاء القطار الجديد فركبوا في السيارات المشتركة وهم صامتون وكأنهم أصبحوا راضين عن الصمت، وآملين عدم تكرار ما حدث ونظرات بعضهم لبعضٍ تقول إنهم قرروا عدم الحديث عن "شربيني" مرة أخرى.

ملف

الأمل أجمل شيء في الكون إذا تم إستغلاله جيدًا...

ولكنه يكون خطيرًا جدًّا إن تم استغلاله بطريقة خاطئة...

***

خرج من بيته حاملًا في يده ملفَّه الخاص به...

مجموعه ليس بكبير ولكنه كافٍ لإدخاله كلية حقوق من المرحلة الأولى، فإن ذلك هدفه وهو تحقيق العدل والعدالة، فإنه يريد تحقيق العدل على الأرض كما حقَّقه من قبله الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين، العدل إن لم يكن غاية فهو اسم من أسماء الله – عز وجل–، ويريد أن يُحقِّق العدل بأن يكون وكيل نيابة.

وقد حقَّق أولى خطواته ليصل لذلك الحلم بعد أن تم قبوله في كلية الحقوق بجامعة القاهرة..

فإنه يرى أن أهم شيء في الكون هي القواعد التي توضع من أجل حماية الذات وحماية الأفراد وممتلكاتهم العامة والخاصة، وإن الله – عز وجل– وضع لنا قواعد في التعامل مع بعضنا البعض، وأنزل ذلك في ثلاثة دساتير سماوية، هي "التوراة" و"الإنجيل" و"القرآن الكريم"... وبالقوانين الإلهية والبشرية تتحقق العدالة ويسود العدل بين الناس.

أفكار وأحلام عديدة تملأ رأسه، وخلال تلك الأفكار ركب عربة المترو الذاهب لجامعة القاهرة، ولم تتوقف أفكاره عند العدل وتحقيقه، بل فكّر في حياته الشخصية، وفي فتاة أحلامه التي ستجعله يستميت على حلمه حتى يحققه ويستطيع بعد ذلك الزواج بها، وكيف سيكون شكلها وطولها المناسب له، فإنه يرى أن ذلك هو سِنُّ الحب الحقيقية، فكل الشباب يحبون في الجامعة.

نظر إلى أسامي المحطات وأصبح ينتظر بشغفٍ واشتياق لتلك المحطة التي ستكون أولى خطواته لتحقيق حلمه، وكلما اقتربت المحطة زادت الفرحة التي يشعر بها، فالشغف والاشتياق مشاعر غير مُتحكَّم فيها ولا يمكننا حتى التفكير في السيطرة عليها، وكأنه شوق لحبيبة قد تغيبت عنه والشوق يقتله لرؤيتها وقد اقترب الميعاد وتزداد نبضات قلبه كلما اقتربت المحطة.

نزل من العربة ووجهه أصبح مرسومًا عليه ابتسامة كبيرة بأن أحلامه ستتحقق، وأنه يسير الآن في درب من الأحلام التي تحوَّلت لواقع، وفي تلك الأثناء تذكَّر والده الذي تُوفي منذ سنتين، وكيف كان يتمنى أن يراه واقفًا في المحكمة مرتديًا تلك اللافتة، بجانب هيئة المستشارين، وأمه التي أصبحت تعمل من أجله، ومن أجل أن يحقق أحلامه..

فأمنتيه أصبحت أن تراه أمه كما تمنى والده، وأن يعمل ليستطيع أن يريح والدته من شقاء العمل، وعندما رأى أمامه لافتة مكتوبًا عليها "جامعة القاهرة" والتي كانت اسم المحطة شعر بقشعريرة تملأ جسده بالكامل، شعر بمشاعر كثيرة تخترق أفق حياته في تلك اللحظة، وكأنه مشجع لرياضة كرة القدم، وقد رأى هدف فريقه في الدقيقة التسعين.

صَعَدَ السُّلم وقلبه يزداد خفقانًا حتى كاد من يسير بجانبه أن يسمع نبضاته، حتى أنه اصطدم بذلك الشاب الذي يحمل هو أيضًا ملفًا في يده.

صَعَدَ إلى أعلى إلى بوابة الخروج ذاهبًا لحلمه،وليبدأ أولى خطوات دربه الذي سيقوده لحلمه الذي طال انتظاره.

ونزل الشاب الآخر الذي تم الاصطدام به من قبل الحالم ليأخذ أول قطار مترو قادم..

وبعد انتظار قليل مرّ على ذلك الشاب وكأنه دهر أتى القطار، رَكِبَه ثم نظر في الملف الذي بيده وكان مكتوبًا بداخله:

ناجح بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف، وترتيبه على الدفعة الأول..

إنه الأول بلا استثناء، ولكن الاستثناءات أتت عليه عندما عُيِّن ابن الدكتور الفلاني معيدًا بدلًا منه، أما عن تعيينه في النيابة، فإن ملف أهله غير لائق لذلك، إن والده كان يعمل عامل نظافة في إحدى الهيئات الحكومية، وقبل أن يتوفي كان يتمنى أن يرى ابنه وكيل نيابة كبير، ولكن لحسن حظه تُوفي قبل أن يرى مأساة ابنه الوحيد، رحل ليتركه وحده في الحياة.

وفاته جعلت أمه تعمل خيّاطة بالمنزل بجانب المعاش الذي لا يكفي أسبوع، تلك المهنة التي أضعفت نظرها جدًّا.

صمت داخلي.. أهذا الهدوء الذي يسبق العاصفة؟! ليس الصمت سلام داخلي فإنه لم يقترب من تلك القوة بعد، وقد لا يستطيع الوصول لها.

نظر لملابسه جيدًا من أسفل عند حذائه حتى وصل بنظره إلى الكتفين، وتسائل: ماذا بعد؟ أهذا ما يريده لنفسه، بنطاله مرهق من كثرة ارتدائه، وشعره غير مهذب، وقميصه يرتديه منذ أن كان في الفرقة الأولى.

تذكّر حينها حبيبته التي ستتزوج بعد ستة أشهر من الآن، وتذكّر أنه لم يتدرب في مكتب محاماة،وذلك لأنه كان يعتمد على أنه سيكون وكيل نيابة فذلك حلمه منذ أول يوم له في الجامعة.

أحلامه كلها تلاشت لمجرد أن عائلته غير مؤهلة اجتماعيًا ليكون وكيل نيابة، أهو من سيكون وكيل نيابة أم عائلته؟

واقع متخلف عنصري يرى العالم بنظرة عنصرية، ويحاكم البشر على مكانتهم الاجتماعية، ومن ثم بدأ يعاتب نفسه عما يفعله من صراخ بداخله، والعويل، ألم يكن يرى ذلك في الأعوام التي سبقته وكيف كانت تُدار اللعبة، ألم يكن يعلم منذ اللحظة الأولى أنه لن يستطيع مجاراة ذلك الشاب ابن الدكتور بأن يكون معيدًا؟! ألم يكن هذا حلمه الثاني إن لم يوفق في النيابة؟ وكل عام هناك ابن دكتور جديد، وهناك ضحية جديدة تدخل معادلة الظلم والتفرقة العنصرية، فالجميع في ذلك المجتمع العنصري يرث نجاحات أهله حتى إن لم يكن مُؤهَّلًا، وممن خاب أهله ورث خيبتهم.

في تلك الأثناء تذكّر ذلك الشاب الذي اصطدم به، فعاتَبَ نفسه أن يكون قد أصابه أذى من ذلك الاصطدام، حتى أنه لم يعتذر له، نظر لنفسه في إنعكاس صورته على زجاج باب المترو، محاولًا رؤية نفسه أراد أن ينظر في عينها ذاتها لكي يعلو بصوته أنه مخطئ، وكان لا بد أن يدخل إلى عالم المحاماة عن طريق التدريب في أي مكتب

محاماة، وقد قرَّر أن يبدأ البحث من الآن في إيجاد مكتب مناسب للعمل فيه.

ولكنه عندما نظر في زجاج باب المترو وجد شيئًا غريبًا، حيث إن الزجاج يعكس صورته، فقد لاحظ أنه ذاك الشاب الذي اصطدم به يشبهه كثيرًا، بل يكاد يكون هو.

الاتجاه المعاكس

كنتُ ذاهبًا لبيتي اليوم، مُحطَّم الفؤاد، فقد تركتُ حبيبتي منذ دقائق، فإنها سوف تتزوج من جارها لأنه لديه شقةً، ويعمل مع والده في معرض سيارات يمتلكه.. أي أنه يملك مستقبلًا..

أم أنا فلستُ إلا جبانًا، لا أستطيع أن أخاطر بأي شيء.

مجرد إنسان يعيش كحيوان يأكل، ويشرب، ويقضي حاجته، ومن ثم يسب، ويلعن في المجتمع.

ولكني لم أحاول أن أبحث عن عمل، ولم آخذ أي كورس، حتى المال الذي يعطيه والدي لي أصرفه في اللهو، وعلى القهوة، والتنـــزه في الحدائق مع فتاتي التي ستتزوج قريبًا.

في تلك اللحظات كنتُ أهبط على السُّلم الكهربائي للمحطة لأركب المترو، إن الحزن الشيء الوحيد الذي يُولدُ كبيرًا، وعندما تكون حزينًا تشعر أن الزمن يتوقف أو يكون بطيئًا لدرجة أنك تشعر بكل ثانية تمر على حياتك، حتى إن السُّلم الكهربائي أصبح أكثر

بطئًا، يهبط، وكأن الزمن يهبط معه ببطء، يشعر بقطرات العرق التي تتساقط من جبينه، ويمكنه رؤية رفرفة أجنحة ذبابة تطير من أمام عينه،كل شيء أصبح غاية في البطء، وكأنك تشاهد فيلمًا بالتصوير البطيء كلُّ أحداثه مُتوقّع، ولكنها تحدث ببطء لدرجة تجعلك تملُّ.

أهذه هي الفيمتو ثانية؟! أشعرَ الدكتور "أحمد زويل" بما أشعرُ به حتى يستطيع أن يُجزِّئ الزمن لتلك الجزئيات الصغيرة.

هل هذا ما يُسمى بالموت البطيء، وأن تشعر بكل لحظة تمر عليك وكأنه دهر؟

أسئلة كثيرة تُروادني عما حدث، وعما سيحدث، ولكن الإجابة واضحة، سأعود للبيت، وأفتح الفيس، والتويتر، والانستجرام، وأزيل كل أكونتاتها، وأعمل لها بلوك، وأزيل كل صورها وأبدأ أن أعيش حياتي المعتادة، وكلها يوم أو يومان وأزيل صورتي الحزينة بأخرى مبتسمة، وأبدأ أبحثُ عن غيرها.

وفي تلك اللحظة وعندما اقتربتُ من الوصول اصطدمتُ بطفل صغير لا يتعدى عمره اثني عشر عامًا، كان يريد الصعود للسلم الكهربائي الهابط.

جميع من على السلم بدؤوا يصرخون فيه ويحذرونه حتى استمع لكلامهم، ونزل، ولكنه كان منتظرًا ليترلوا ثم يكمل رحلته..

فوجدتُ نفسي أقف لأشاهد ماذا سيفعل؟ وفي داخلي شعور يتمنى أن يسقط لكي يتعلم بألا يصعد عكس التيار..

كان كل مرة يواجه أحدهم الذي يمنعه من الصعود، وكان يضطر أن ينزل بعد أن صعد إلى نصف السلم، ولكنه لم يستسلم..

وكل مرة كان إصراره يزداد، في عينه بابتسامة، تلك التي يظهر عليها مدى قوته وإصراره على التحدي وكأنه يريد أن يقول للسلم:

– لن تهزمني مهما تضع من أمامي من عقبات.

وفي كل مرة يزداد غضبي عليه وأتساءل:

لماذا يحاول أن يصعد كلما يفشل؟!

ولكنه صعد محاولًا تحدي نفسه وتحدي أفكاري، وقد استطاع مجاوزة الكثير من الواقفين، ولكنه لمح أمن المترو فاضطر أن ينزل.

ولكن ما لاحظته أن نسبة صعوده تزداد، وكل مرة كانت تزداد دعواتي بأن يكف عن المحاولة، وعند ذلك لم أقل له أي كلمة بالسلب أو بالإيجاب، بل كنت أقف مشاهدًا فقط، مجرد إنسان حضوري سلبي يتمنى فشل غيره لكي يداري فشله، ومع استمرار تحديه للواقع المتمثل في السلم أشعر بأن هناك جزءًا بداخلي أصبح يتمنى صعوده، وذاك الجزء يكبر كلما مَرَّ الوقت، وكلما ازداد تحدي ذاك الطفل.

ازدحم المترو، وازداد عدد من يترل على السلم، فقد حان وقت خروج الموظفين، والمدارس، شعرت بنظرة يأس تخرج من عينه، وحينها كنتُ مبتسمًا، وبدأت في التحرُّك ولكنه استطاع أن يجعلني أتوقف عن الحركة عندما رأيتُه يُصمِّم على الصعود.

وقف بعيدًا ثم انطلق بسرعةٍ كبيرة يستخدم كل ما يملك من القوة، ويصعد بين الناس، يسبه مَن يسب، ويلعنه مَن يلعن، فذلك لم يفرق معه في شيء، وكأنه أراد أن يصل لهدفه مهما يحدث، كأنه أصبح كجاموس وحشي يريد اقتحام قطيع من الذئاب والضباع المتوحشة، فلا يجد طريقة سوى استخدام قوته حتى إن كان يعلم بأنه لن يستطيع مجاراتهم للأبد، ولكنه يحاول أن يعيش، يحاول تحقيق أحلامه.

"سيصعد لا محالة..."

هكذا قلتُ لنفسي من المفاجأة، وأظنُّ أن هناك من سمعها بجانبي، وكان أيضًا يراقب ذلك الفتى باندهاش فلم أكن أنا الوحيد الذي يُراقبه..

كان يصطدم بفتيات، وفتيان ولم يمنعه شيء حتى وصل إلى أعلى، وحينها وجدتُ نظرة مليئة بالفرحة لأول مرة أراه، شعرتُ حينها بفرحة لا أعلم مصدرها، ولكنها جعلتني مبتسمًا..

وكأني أنا من فَعَلَ كل ذلك، وليس هو، أن يسير المرء عكس الاتجاه أمر صعب، ولكن ذلك الطفل مليء بالشجاعة والحماسة والتحدي.

سألت نفسي ذلك السؤال:

هل أستطيع مجاراة التيار والسير في عكس اتجاهه؟!

ولكن إجابة ذلك السؤال كانت الابتسامة التي تُغطي وجهي وأظنُّ أنها إجابة كافية.

وكانت الإجابة تظهر على ملامح كل من حولي من المشاهدين، ولكنها كانت أكثر وضوحًا على وجه ذاك الطفل الذي سيكون له مستقبل باهر.

أنوثة بلا ثقة

لا تُقلّل من شأن أمراة فقدت الثقة بأنوثتها فغالبًا تكون أعظم من أجمل امرأة في الكون..

***

دخلت عربة الرجال، وكانت الفتاة الوحيدة بها مرتدية بنطلونًا ضيقًا، شعرها طويل على هيئة ذيل حصان، شقراء ذات عينين زرقاوين، وترتدي بلوزة واسعة من الأعلى، فكل شيء فيها مثالي إلا تلك البلوزة الواسعة ذات اللون الأدكن، هكذا كان يراها جميع الرجال وهم يشتهونها في صمت، إلى أن تجرأ أحدهم على الخروج من ذلك الصمت.

اقتربَ منها وانتظر حتى محطة العتبة، والتي تسبق محطة الشهداء، وكان يصبر وكأنه صياد محترف يعرف متى يطلق الطلقة في وقتها المثالي حتى لا يكون هناك مفرٌّ من السقوط.

عندما وصل المترو لمحطة العتبة وأصبح الوقوف في مكانه أمرًا مستحيلًا، اقترب منها في أثناء صعود أفراد من كائنات شبه بشرية غوغائية غير منظمة، ولم يكن على لسانهم سوى تلك الجملة:

– نستحمل بعض خمس دقايق يا إخوانا والمترو هيفضى في الشهداء.

ولكن الوحيد الذي لم يتضايق من ذلك الموقف هو ذاك الشاب الذي ألصق جسده كاملًا بجسد الفتاة، وبدأ يشعر كم هو طريّ ذاك الجسد، وكيف رائحتها الذكية تنسيه رائحة العرق الذي يملأ المكان بل إنها تجعله يسافر إلى ما هو أبعد من عالم الشهوة والرغبة.

كل ثانية تمرّ كانت جرأته تزداد وتتشجع يده وتخترق محرماتها، ومع ذلك لم يكن هناك ردُّ فعل منها وكأنها مستسلمة لما يفعله، بل إنه يظن أنها مستمتعة بذلك،وكلما تجرأ ولم يجد ردَّ فعلٍ تزداد جرأته أكثر فأكثر، والجميع لا يشعر بشيء، الجميع لا يركز غير في تلك الجملة التي أصبحت تُقال بتكرار:

– اللي واقف على الباب،ومش نازل يوسعلنا ويدخل جوا مكانا.

لكنه لم يهتم كثيرًا بتلك الجملة لأنه يقف في منتصف العربة تقريبًا، بل إن ذلك أعطى له أفضلية في وضع يده على مؤخرتها، وأصبحت يده تلمس كل جسدها من وراء، ولم تشعر بشيء سوى بألمٍ، ألم يخترق جسدها، كلما اقترب أكثر ذاك الشاب زاد الألم.

ألمٌ يفوق ذاك الألم بفقدان صدرها عندما أصبح أكبر حجمًا بطريقة مخيفة، بطريقة سرطانية كتبت نهايته مبكرًا.

ألمٌ يفوق كل ما نتخيله، البكاء وحده لا يكفي، ولا حتى الصراخ فذلك الألم كان بقلبها، والجرح أصبح أعمق مما تتخيل.

الصمت وحده يكفي بأن يقتل ذلك الألم، أو يسكنه كالمسكنات الطبية، ومع ذلك لن يكون قادرًا على دفنه بل هي التي ماتت عندما فقدت صدرها وفقدت معه جزءًا كبيرًا من أنوثتها، فقدت في تلك العملية إحساسها بالرغبة والجنس.

عندما التصقَ بها ذاك الرجل شعرت بأن هناك من يشتهيها وذاك ما رفع من معنوياتها، ولكنه تعلم بأنه أشتهى الجزء الموجود فقط، ولم يشتهِها كاملة لأنها غير كاملة الأنوثة.

وكلما زاد الوقت شعرت بيده تخترق كل قواعد الحدود الحمراء، وقواعد الممنوعات التي كانت تحفظها منذ كانت مراهقة، شعرت حينها بألم كبير، وكأن الجرح والنقص الذي صنعه السرطان تزايد أضعافًا مضاعفة عندما فعل ذاك الرجل ما فعله، انتهت الدقيقة منذ أن تحرك القطار من محطة العتبة.

وصل القطار لمحطة الشهداء..

نزل كل من في العربة، ونزل ذاك الرجل مبتسمًا وكأنه حقق إنجازًا جديدًا يُضاف إلى سجله الشرفي.

وبعد نزوله نزلت دموعها، وانغمرت بلا توقف، وفي وسط ذاك البكاء شعرت أن هناك جزءًا بداخلها راضٍ بما حدث، بل إنه فرح بأن ما زال هناك أحد يشتهي أنوثتها المفقودة.

شعرت بأنها عاهرة، ولكن هناك جزء بداخلها يرضى بذلك بل يريد تكراره، فما أصعب أن تفقد المرأة الثقة في أنوثتها، وكأنها فقدت هويتها التي تميزها عن الآخرين.

الشاطيء الأحمر

الشاطيء حيث المرح، والسعادة، حيث يهرب الناس من حَرِّ الصيف، حيث يهربون من ضغوط الحياة، وهكذا نفعل أنا وأصدقائي نهرب من واقع الحروب، والحصار إلى عالم الخيال الذي يجعلنا سعداء؛ فإننا قد تعوّدنا الذهاب للشاطيء، نترل المياه، ونسبح مدة قصيرة خوفًا من مراكب العدو، ثم نصعد، ونجلس على الشاطيء، نراقب حركة الطائرات، ونتخيل أنفسنا المسئولين عنها وسائقيها وركابها، وهناك من صديقاتنا مضيفات طيران، فنترل في مطار فلسطين الذي يرفرف عليه علمنا، الأسود والأبيض والأخضر والأحمر.

وكالعادة أتى أصدقائي طالبين مني الذهاب معهم للشاطيء فقابل ذلك رفض والديّ خوفًا عليّ، ولم ترضَ أن أنزل حيث كانت غزة تحت القصف الشديد، وبعد محاولات فاشلة لإرضائها ذهبوا ليعيشوا أحلامنا، ذهبوا هربًا من ضوضاء القذائف لهدوء البحر، هربوا من خوف الموت لمتعة الحياة، هربوا من الطائرات والدبابات والقذائف لرمال البحر الخشنة التي لطالما تركت أثرها في أجسادهم.

هربوا من خوفهم من الموت إلى حلم بمستقبل بعيد يطمئنهم أنهم لن يموتوا اليوم، ليثبتوا لأنفسهم قبل الجميع أنهم لا يخشون من تلك القذائف، راغبين أن يعيشوا حلمهم مرة أخرى على هذا الشاطئ وأن يقتصوا من الأعداء ولو "حلمًا" في خيالهم.

كنتُ حزينًا لأني لم أذهب معهم، وجلستُ مع والدتي أمام القنوات الإخبارية لأرى من استُشهد اليوم، والحياة البائسة التي نعيشها، فلم يكن التيار الكهربائي منقطعًا حينها كعادته.

لقد فارقت أصدقائي، ولم أذهب معهم، وهذه أول مرة يعيشون الحلم دوني، كيف لا أراهم من طائرتي وأتابعهم وأوجههم؟! وأبعث لهم الخطة خلال إشارات من زجاج الطائرة؟كيف لا أشاركهم الحرب الخيالية على العدو؟

كادت عيناي تدمعان حينها قاطعنى القدر بأن جعلني أراقبهم. وأتابعهم، ولكن ليس من زجاج الطائرة بل من زجاج الشاشة..

إنهم أصدقائي مما لا شك فيه، وذلك هو تيشرت صديقي الذي اشتريته له في عيد مولده العاشر من أسبوع مضى ..!

طائرة تقذفهم.. صور لأعضاء متفرقة من أجسادهم.. تُعرض أمامي.. دماء.. وجوههم الحمراء.. شاطيء أحمر.. يحدث هذا ببساطة في لحظات، حتى التيشرت الأبيض أصبح لونه أحمر بدماء صديقي..

طائرات عشوائية منظمة لقتل الأحلام في كل صديق بلا رحمة، ولا شفقة تقتل لمجرد القتل، وكأنها تنتقم منا لأننا نحلم، لم أكن أتخيَّل أني سأراهم اليوم على التلفاز، وليس بعد رجوعهم.

إنهم لن يرجعوا اليوم من الشاطيء، أصبحوا أشلاء على شاطيء أحمر، تراهم خلف الشاشات وجوهًا حمراء مكتظة بالغيظ، وأخرى حمراء من الضحك، والفرحة ولا سيما هناك بعيد وجوه أخرى حمراء من كثرة الطعام، والحلوى التى تملأ أفواههم.

نعم، كل هذا يدور في مخيلتي ..

أصدقائى لن ألعب معهم بعد اليوم،فكل هؤلاء القتلة، والمتعاطفين مع الاحتلال، قتلوا فرحة أصدقائي وفرحتي معهم، وأصبحتُ وحيدًا بلا أصدقاء أذهب معهم للمدرسة..

لم يقتلوا فرحتي فقط بل قذفوا ذكرياتي بقذائف الحزن العنقودي، والشجن الفوسفوري.

هربت من أشياء عديدة.. من والدتي، من إزعاج القذائف على الشاشة إلى هذا الشاطئ الكبير.. من دموعي .. من كل خوف يحاول أن يسيطر عليّ، هربت لكي أحلم بأصدقائي الذين ماتوا وأعمارهم لا تتعدى 10 سنوات، هربت لكي أسترجع ذكرياتنا في ذلك المكان، هربتُ حتى من نفسي!

فعملتُ المعتاد..

نزلت للمياه، ثم صعدت إلى الشاطيء، وجلست على الرمال أفكرُ في أحلامنا باحثًا فيها عن إجابة لذلك السؤال الذي يحيرني:

هل ذلك هو المستقبل الذي كنا نريده أنا وأصدقائي؟!

هل ماتوا هباءً، وعبثًا من أجل لا شيء؟

أين المطار الذين نحلم به؟

أين البحر الذي نصطاد منه، نسبح فيه؟

أين الحرية التي نبحث عنها؟

أين مستقبل فلسطين؟

بعد التأمُّل في السماء التي كانت صافية من السحاب والطائرات، رأيت دخانًا أسود يأتي من المدينة، ويتجه نحو الشاطيء، وكأن الشاطيء أصبح سجنًا بذلك الدخان المتصاعد، وذلك يعني أن القصف بدأ مرة أخرى، وفي أثناء الهدوء الذي كان يحيط بالمكان ولا

يعكره سوى صوت القذائف من حين لآخر، جلستُ أتأمل كل شيء وفي وسط غيوم الأفكار، وضباب اليأس الذي تملكني، سمعتُ صوتًا من بعيد يقترب مني، صوتًا قويًا يأتي من السماء، ظننتُ في البداية أنها أرواح أصدقائي تناديني، ولكني اكتشفتُ أنها طائرة حربية مرت على سماء غزة وتقترب من الشاطئ عندما رأيتُها تخترق الأفق وكأنها تبحث عن فرحة لتقتلها، تبحث عن دمعة قاربت على السقوط لتأتي بكل قسوةٍ فتسقطها.

كانت تقترب مني، ولكني لم أخف وأمسكت بحجر بجانبي وقذفته تجاهها، ولكن ماذا سيفعل حجر مقابل قذيفة؟!

بدأ حلمنا بطائرة نطير بها فوق السحاب وانتهى حلمنا بطائرة تقذفنا وتحولنا لأشلاء، لم تقتل الطائرة أصدقائي فقط بل قتلت حلمنا أيضًا، شعرتُ بشيء يترل من رأسي بعد سقوط القذيفة، ومن ثم رأيتُ كل شيء أحمر حتى السماء أصبحت حمراء،حينها سمعت صوت أصدقائي من أعلى يقفون ويبتسمون لي، ينظرون لي من السماء.

شعرتُ ببرودة شديدة جلعت كل آلامي تختفي، وكأن جسمي قد تخدّر بأكمله، وكلما زادت البرودة وضحت رؤيتي لأصدقائي الذين يمدون أيديهم ليّ بفرحة بأني أصبحتُ معهم، كانوا يحلمون بأن يطيروا بطائرة فأصبح لديهم تلك الأجنحة، كما أصبح لديّ...

هل ذلك يعني أننا أموات أم أحرار؟!

قرار

وَقَفَ على رصيف المترو منتظرًا القطار كالجميع، ولكنه في عجلة من أمره، فحبيبته تنتظره في الشارع منذ أكثر من ساعة.

ما زال يُفكّر في كم شخص ضايقها حتى الآن، وكم شخص قال لها كلمات غير مناسبة، إنها ليست جميلة، ولكن مجتمعنا لا يفرق بين جميلة، وقبيحة ما دامت أنثى فكل شيء مباحًا، وأصبح حلالًا له أن يفعل أي شيء، هكذا يفكر المتحرش، أو هكذا يتوقع تفكيره، فإنه لم يمس أنثى من قبل فما بالك أن يتحرش بفتاة، ولا يعرف كيف لهؤلاء الذين يسيرون وراء شهواتهم أن يعيشوا هكذا كالحيوانات بعد أن فضلهم الله عن باقي الكائنات.

ضوء القطار من بعيد ظهر، الإنذار يملأ المكان ضوضاء، وليس تنبيهًا، حتى يبتعد هؤلاء البشر من حافة الرصيف، ولكن ابتعادي عن حافة الرصيف لم يكن قراري بمفردي، فهم يقفون ورائي ويتدافعون لهم القرار الأول والأخير.

وصل القطار مزدحمًا كالعادة، والرصيف أكثر ازدحامًا، والوقت يمرّ، وأن أنتظر قطارًا آخر ليس بقراري، بل إنه قرار قوة الدفع، وقوة قلقي الذي يقتلني على حبيبة قلبي.

اندفع بشر كثيرون من العربة خارجين، ومن ثم كان هناك تدافُع كبير حتى أدخل، وكدت أن أقع أكثر من مرة، ولولا حسن الحظ، لأصبحت مداس يداس عليَّ من جميع الخارجين وكأني أصبحت فجأة مباحًا للجميع في الجذب والدفع، وكأن رأي الوحيد هو أني قد اخترت مكان وقوفي على رصيف المترو.

الوقت يمر ببطء شديد، وتشعر بكل دقيقة، بل بكل ثانية تمر عليك، ورائحة العرق التي تنتشر في كل أرجاء العربة، بسبب تمسكهم بالقضبان العلوية حتى لا يسقطوا إذا توقف القطار مرة واحدة كما يفعلها كثير، ولم يتوقف الأمر عند رائحة العرق فقط بل إنهم يدهسون قدميَّ في الدقيقة الواحدة أكثر من 30 مرة، حتى أصبحتُ معتادًا ذلك،والآلم لم يعد له مكان في ظِل كُلِّ تلك المؤثرات.

في تلك اللحظة خطر على بالي ذاك السؤال:

كيف سأنزل؟!

أُغمض عيني محاولًا الهروب من الواقع، وأن أذهب لعالم آخر مليء بالأشجار والطيور والهدوء، ولكن تلك القبضة التي أسقطت نظارتي الطبية جعلتني أرجع للواقع بمصيبة أكبر مما يتوقع ذو القبضة

الحديدية، فلم يكن قرارًا صائبًا بأن يرجع بقبضته إلى الوراء بذلك الشكل ولحسن حظه أني لا أراه حتى أستطيع أن أردَّ له تلك القبضة.

حاولت النزول للبحث عنها، ولكن قراري في النزول تأخَّر قليلًا، فلم أستطع الوصول لها في الوقت المناسب فتحولت لبقايا نظارة تحت إحدى الأقدام، ولا أستبعدُ أنها قدم ذي القبضة، شعرتُ بالغضب الشديد، وانتشر الأدرينالين في جسدي كانتشار النمل حول جثة صرصور مقتول بضربة حذاء، ولكن حيرتي جعلت غضبي مُشتتًا حيث لم أكن أعلم ماذا سأفعل؟!!

هكذا تساءلت، وهكذا صمت عقلي عن الإجابة، فأنا لا أرى جيدًا بدونها، فنظري ضعيف جدًّا، هل سأرجع أم سأستمر في طريقة لعلي أستطيع الاستمرار والوصول لحبيبتي؟ ولكني لم أقرِّر في الصباح عندما أستيقظت بأني سأذهب لها، بل صديقي هو مَن أشار عليّ، ولم يكن المترو من اختياري، ولكن حبيبتي قالت إنها أسرع وسيلة أستطيع الوصول بواسطتها لها.

ولكن لماذا أقول عنها حبيبتي وأنا لم أعرفها سوى من أسبوعين؟!! فلقد اختارتها لي والدتي قائلة:

– بنت خالتك بتحبك من ابتدائي، لازم تتجوزها دانا قاريالك فتحتها من وانت عندك 3 سنين.

حتى كلمة حبيبتي التي أقولها لها كانت هي من طلبتها مني، فأنا لا أعرف معنى الحب ولا أؤمن به، فلا أعرف سوى العمل فقط، وما أقلقني عليها كلام صديقي الذي نبّهني أن الفتيات يحبون الخروج، ولكن ليس لوحدهنَّ بسبب مضايقات الشباب في كل مكان.

شعرت بالضيق، وكان صدري ينقبض ويكاد يلتصق قفص صدري بظهري، شعور خانق، وكلما تذكرت شيئًا وضحت ليّ رؤية أشياء أخرى لم أنتبهْ لها من قبل حيث إني لم أختر شقتي التي سأعيش فيها معها، ولم أختر ملابسي، فأمي هي من اشترتها لي،ولم تكن النظارة من اختياري بل كانت إجبارًا بسبب مرض وراثي، ولم أختر ملامحي السمراء، فقد كان والدي أسمر اللون، ولا حتى شعري، أو قصر قامتي وبالتأكيد اسمي لم اختره، لم أختر وظيفتي فأنا لم أكتب تنسيقي، وأنا لم أطلب الواسطة من خالي لتعييني في البنك.

لماذا لم أختر شيئًا في حياتي؟

في تلك الأثناء نزل كثير من الركاب وصعد قليل، وتحرك المترو من المحطة، فتساءلت عن اسم المحطة الذي لا أراه فقال أحدهم:

"إحنا داخلين على محطة البحوث"

"البحوث..!"

هكذا رددتُ بداخلي متعجبًا ومستنكرًا لما يحدث، فلقد كان لا بد عليَّ أن أنزل في محطة الأوبرا.

تنفست بصوت عالٍ منتظرًا المحطة القادمة حتى أنزل، وفي تلك الأثناء خطر على بالي أنني أستطيع آخذ تاكسي لأصل لمترلي، وأغلق هاتفي وأنام، يكفي ما حدث في يوم واحد.

توقف القطار، وفُتحت الأبواب ونزلتُ متخذًا القرار، بل متخذًا قرارًا أقوى بأني لن أستمع لأحد بعد ذلك، وسأفعل كل ما يرضيني، وليس كل ما يرضي غيري، فقد سَئِمَت حياة التابع الممل، ولكني لم أكن أرى شيئًا.. فجلست على أحد المقاعد الموجودة في المحطة مفكرًا في الخطوة التالية، ولكن عقلي توقف، وقراراتي التي اتخذتها اختفت من تفكيري وكأنها لم تكن موجودة.

رنَّ هاتفي وظهر اسم والدتي على الشاشة، فأجبت عليه وكأني وجد النجدة:

– ألو.

– أنت سايب خطيبتك في الشارع لوحدها، ده اسمه ايه يا أستاذ؟

– طيب إهدي بس يا ماما.. أنا رايح لها.

– طيب يلا بسرعة، وأوعى تزعلها.. فاهم؟

– حاضر يا ماما مش هزعلها.

اتصلت بحبيبتي حتى أطمأن عليها.

– ألو..

– إيه يا حبيبي أنت فين؟

– أنا في محطة البحوث..النطارة وقعت، واتكسرت، ومش شايف حاجة وقاعد تحت في المترو.

– طب خلاص متقومشي، ومتعملشي حاجة.. أنا جايلك.. إوعى تتحرك.

– حاضر هستناكي أهو بس متتأخريش عليا.

– حاضر يا حبيبي جيالك.

أغلق الهاتف وهو يشعر بضيق لأنه وجد نفسه غير قادر على الصعود ليأخذ ذاك التاكسي، ولا حتى قادر على غلق هاتفه وكأنه في الواقع غير قادر على اتخاذ أي قرار، ولم يرد على أي أسئلة مما يسألها عقله واكتفى بالصمت.

ملابس داخلية

كانت تقف أمام الشرفة.. فتاة مراهقة في سن خمسة عشر عامًا أو تزيد قليلًا، وكانت الشرفة المقابلة لها عروس جديد كانت إحد زميلاتها في المدرسة الإعدادية، ولكنها كانت فاشلة وتكبرها بسنتين أو ثلاث.

تلك العروس الجديد التي لم تكمل في بيتها الجديد سوى ثلاثة أيام فقط، لم ينفتح الشباك خلال تلك الفترة، لم تعلم لماذا ولكن ما أثار تحفظها تلك الطريقة التي تنشر بها ملابس زوجها الداخلية فقد كانت ترتدي قميصًا أحمر، وتنشر ملابسه بفرح وكأنها تفتخر بشيء لا تعلمه تلك اللفتاة الصغيرة، ومن ثم تضع ملابسها الداخلية وراء ملابسه.

تساءلت إن كان ذلك احترامًا أم أنه يعني شيئًا آخر خصوصًا ذاك الهمس بين الجيران الذي وصل لأذنها، وكان الهمس عن عدد الملابس الداخلية، وضحكاتهن، وسخريتهن كان يثير اشمئزاز تلك الفتاة وفضولها.

قررت أن تسأل أمها، وهي تفطر، وكان والدها رجلًا فظًّا غليظ الطّبع لا يعجبه شيء من عادات الجيل الجديد، وكان ينتمي فكريًّا لزمن أن السيدة لا تفعل ما يفعله الرجال.

سألت أمها وكان والدها يفطر وحينما سمع ما قالته قام وضربها على وجهها، الذي احمرَّ وطلب منها ألا تتحدث في أمور الكبار، وأشياء لا يصّح أن تتحدث فيها.

ضحكت أمها من سؤال ابنتها، وعما فعله أبوها فلم تجد سوى طبق الطعام ملقًى عليها ومغادرته لطاولة الطعام منسحبًا ممَّا يضايقه، ذاهبًا لما هو أهمّ، إنه عمله.

جلست في غرفتها بمفردها، تبكي بسبب ضرب والدها لها، ولكنها تريد أن تفهم، لا تريد أن تفعل الخطأ، ولكن بالفهم وليس بالضرب، فهناك أشياء عديدة لا تفهمها، فكيف لها أن تفهم شيئًا كهذا؟

فكرت أن تذهب لزميلتها السابقة، وأن تجلس معها فترة لأن زوجها في العمل، وتستطيع الجلوس معها حتى يرجع، ومن ثم تسألها:

لماذا تضحك النساء وضحكت أمها؟ وما سبب نظرة اللؤم التي كانت تملء أعينهم؟

***

انتظرت أربعة أيام حتى نزل زوجها للعمل، واستطاعت الصعود إليها، فإن أهل المنطقة لا يملكون من المال ما يجعلهم يقضون شهر عسل، بل هم يقضون أسبوعًا داخل المترل، أشياء سخيفة بأن يحدد الفقر أيام السعادة بين الزوجين، وكأن الفقر أصبح متحكمًا في كل شيء.

عندما صعدت الفتاة إلى زميلتها السابقة، وسيدة البيت حاليًا، كان تجلس بقميص نوم يظهر مفاتن جسدها دون أن تشعر بخجل بل إنها كانت تشعر بفرح شديد عندما ترى في أعين الفتاة خجلًا من النظر إليها.

فلقد شعرت الفتاة بنظرات سخرية من زميلتها السابقة، جلستا لتتسامرا، وبعد وقت قصير وكأن العروس كانت تريد أن تفتخر بما حدث بين زوجها وبينها في ليلة البناء،وكانت تشرح كل شيء وكأنها تحكي للفتاة أحداث مسلسل أو فيلم، ومشاهد منحرفة غير مفهومة، فلم تفهم الفتاة سوى أنه لا بد من الالتحامات وتقطيع بعض ملابس، وكأنهما في معركة.

شعرت الفتاة بالقرف عندما زادت العروس في وصف بعد الأشياء المقززة، فلم يكن بيدها شيء سوى أن تجري الفتاة إلى الحمام محاولة إخراج كل ما في معدتها من بواقي طعام الفطار والذي لم يكن قد هُضم بعد.

قرّرت العودة لمنزلها.. فلم تفهم شيئًا منها عن سبب نشر الملابس الداخلية الخاصة بزوجها في مقدمة حبل الغسيل، بينما ملابسها في الخلف، ولكنها تفاجئت عندما استمعت لصوت والدها ينادي عليها.

خرجت من الشرفة لكي ترد عليه محاولة تخفيف غضبه بالرد السريع،ولكن الشر والغضب كان يملآن عينه، وكأنه يريد أن يقتلها، فقررت الذهاب على الفور بلا تأخير لمنزلها لتنال ما تستحقه من عقاب بالنسبة لرأي والدها، أما هي فلم تفهم بعد لما كل هذه التعقيدات.

رجعت لتستقبل معركة مع والدها، وانقلب البيت لحلبة مصارعة مباح فيها استخدام كل أنواع الأسلحة التي كانت تطير، وتنزل عليها، وعلى والدتها التي كانت تقف حائلًا بينهما في أوقات كثيرة، وعندما انتهت من تلك المعركة والتي لم ترَ نهايتها بعينها، وجدت نفسها في المشفى بها كسر في يدها اليمنى، وكدمات متعددة في كل أنحاء جسدها.

انقضى شهران وهي تنام على السرير غير قادرة على الحركة، انقضت معها إجازة الصيف، وبدأت الإعداد للصفِّ الدراسي الجديد في الثانوية العامة، وقد امتنعت عن التواصُل مع العروس الجديدة بعد تلك المعركة التي كادت تقضي عليها.

مع ذلك لم يهدأ فضولها لحظة واحدة، وذلك كله بأنها بالرغم من تلك المعركة التي كادت تنهي على مستقبلها فإنها كانت تزداد غيظًا بأن كل ذلك ذهب سُدًى دون معرفة إجابة تشفي غليلها.

ولماذا تضع المرأة ملابس الداخلية للرجل أمام ملابسها والاثنان لا يمكن الافتخار بهما؟!

تعدّدت الأسئلة، ومرّ الزمن، والوقت، ولم يجيب أحدٌ عن تلك الأسئلة التي كانت تزداد عمقًا كلما مرّ الدهر، وكأنه يزيد الأسئلة قوة ومعاني أكثر دقة، فقد صقلتْ دراستُها في الثانوية للفلسفة قُدرتها على التأمل والبحث حتى انتهت مرحلة الثانوية لتبدأ مرحلة جديدة.

فقد التحقتْ بكلية آداب القاهرة قسم الفلسفة، وذابت أفكارها مع آراء أرسطو، وأفلاطون، وابن رشد، وكبار المفكرين، والفلاسفة ونظرياتهم، حيث إنها قرأت العديد من الكتب والروايات، وبدأت تستوعب أشياء عديدة عن الحياة الزوجية، والتي لم تكن تفهمها، وعن ملحمة ليلة البناء، والخيال الذي صنعته زميلتها السابقة عندما كانت عروسًا جديدة.

وعندما قرأت الكثير من المقالات عن الزواج وعظمته وقُدسيته عند الله الذي أراد ان يعف بني آدم، تذكرت حينها تساؤلها عن موقع الملابس الداخلية للرجال على حبل الغسيل، وبدأت تبحث في

الكتب والمراجع عن الأسباب النفسية والاجتماعية التي تجعل المرأة تضع ملابس الذّكر في المقدمة.

وفي إحدى المحاضرات طلب الدكتور أن يتناقش مع الطلبة في أي موضوع فلسفي،وكأنه ينمي بداخلهم روح الفيلسوف، فرفعت يدها محاولة التساؤل.

وعندما سألته:

– لماذا تضع السيدات ملابس أزواجهن في المقدمة ولا تضع ملابسهن أيضًا؟

أثار ذلك ضحك كل من حضر المحاضرة، وسخريتهم، وتحوَّلت المحاضرة للسخرية من جانب الطلبة لزميلتهم، حتى إن الدكتور حديث التعيين لم يستطع السيطرة على المحاضرة وقام بإلغائها، ومن ثم بدأت الإشاعات تنتشر أن تلك الفتاة سيئة السمعة في الكلية مع أنها معهم منذ أربع سنوات ولم يحدث شيء كهذا من قبل.

شعرت بألم شديد في قلبها، وحُزن وشجنٍ ممَّا رأت من زميلاتها اللاتي كنَّ مثل إخواتها بعد أن سألت ذاك السؤال، وكأنهم جميعهم مثل والدها، لا يفهمون ما يقولون، ولكنهم مجرد أفواهٍ تتحدث وتأكل فقط.

بعد عدة أيام من جلوسها في البيت قررت، أن ترجع للكلية لإثبات وجهة نظرها، وقد كادت تنتهي من كتابة البحث وفكرت أن تطبع الاستمارات،ولكنها توقّفت عن ذلك،وبدأت تضع الاستمارات على المنتديات مطالبةً إياهم بمساعدتها.

وبعد عدة أسابيع وقد انتهى آخر فصلٍ دراسي لها في الكلية، ومن المفترض أن تُعيَّن معيدةً بالكلية لأنها الأولى على الدفعة، كانت المحاضرة الأخيرة للدكتور نفسه، وقف ليبحث معهم كيف سيكون الامتحان فهو لا يهمه مَن ينجح أو من يسقط، فالنسبة له كلهم سواسية، ولكن مَن يصبح فيلسوفًا أو يتأمل في كل ما حوله فذلك هو أكثر ما يهمه.

قال بصوتٍ قوي:

– إذا كنتم تريدون النجاح فسأعطيكم سؤالًا بسبعين في المائة من مجموع درجات الامتحان.

حينها صفّق الجميع، وكأنه أعطاهم مفتاح الحياة بعد أن ماتوا جميعًا.

فتح الجميع دفاتره لكي يكتبوا وراءه السؤال الذي سينقذهم ويخفف عليهم عبئًا كبيرًا، ابتسم الدكتور قائلًا:

– السؤال سيكون غير متوقّع بالنسبة لكم، ولكن سيجعلكم فلاسفة كما أبتغي ذلك، لماذا تنشرُ السيداتُ في مصر ملابس

الداخلية لأزواجهن في مقدمة حبل الغسيل؟! مع إظهار أي المدارس الفلسفية المستخدمة في تحليلك؟

الجميع اندهش، وبدأ الهمس يزداد، فتركهم الدكتور، وقال هكذا انتهت محاضراتي معكم.

بدأ العويل ينتشر في الدرج بعدما خرج الدكتور، فذهبت وراءه تلك الفتاة حتى لحقته في مكتبه، وبدأت تتكلم معه، بل إنها شعرت انه قد يرد لها حقَّها الذي سُلب خلال الأسابيع الماضية بسب سخرية زملائها، وشعرت كأنها انتصرت للتوِّ.

قال لها قبل أن تتكلم:

– إنه بحث طويلًا عن إجابة لذلك السؤال ولكن لم يكن هناك إجابة مقنعة بالنسبة له.

شعرت بالفخر،وقالت

– إنها قد انتهت من بحثٍ كانت تعمل عليه منذ فترة طويلة.

تفاجأ كثيرًا لما استطاعت تلك الفتاة فعله، وجلسا يتناقشان في مضمون البحث حتى انتهى اليوم، وبدأ يهتم بها كثيرًا خصوصًا بعد تعيينها معيدةً.

وكان رأيها في البحث أن الموضوع أعمق بكثير من الافتخار بما يحدث بين الرجل وزوجته، فالأمر يبدأ من النظرة الدونية للمرأة من المجتمع، بل تكون النظرة أكثر دونية من المرأة ذاتها لذاتها، فإن إقامة العلاقة إذاً نجحت فسيكون ذلك معناه رجولته، وفحولته، إما إذا فشل فذلك لا يعني أنه رجل،مع أن ذلك يتوقف على القدرة النفسية والتحضير النفسي للزوجين، وليس الزوج فقط، وأن الدونية والنظرة الحقيرة للمرأة تظلم الرجل كثيرًا لأنها دومًا ما تضعوه في مكانة عظيمة قد تكون قدراته ضعيفة، ولا يستطيع فعلها فيقلل من قوته ورجولته، حيث دونية الرجل تظلم الرجل والمرأة معًا.

احترمَ جدًّا طريقة تفكيرها وآمن برأيها وقد وافقه تمام، بل إنه بدأ يقترب منها حتى استطاع أن يلمس ما لم يمسه بشر من قبله، إنه قلبها، ولذلك لم يهدأ له بال حتى جعلها تقف على منصة مناقشة الدكتوراه، ولكن كانت في يده اليمنى دبلتها.

وعندما انتهى ذاك اليوم ووصلا إلى بيتهما نظر جيدًا إلى حبل الغسيل فلم يجد ملابسه الداخلية، فقال لها:

– لماذا لم تضعي ملابسي؟!

ابتسمت قائلة إن لاحظت ستجد أن بدلتك تزامل فستاني الخاص أي أننا نتشارك ذلك المجتمع سيدي، أما عن ملابسنا الداخلية فهي شيء خاصٌّ بينا ولا يخصُّ أحدًا غيرنا، ولذلك قالوا عنها داخلية.

الابتسامة الخارقة

الابتسامة كثيرًا ما تكون الخلطة السحرية للإنسان العادي لكسر أي ضغوط على من حوله، فما بالك بأعظم الكوميديين في العالم!

***

يومي المعتاد...

أنزل من البيت يوميًّا الساعة السابعة صباحًا لأصل للعمل في التاسعة صباحًا، ساعتين في الطريق أقضيهما ذهابًا وإيابًا..

فأنا أسكن في شبين القناطر، أركبُ سيارة لكلية زراعة، ومن ثم المترو لأنزل محطة الدقي، وحينها أركبُ سيارة ميكروباص لشارع جامعة الدول العربية...

ذاك هو طريقي اليومي الذي أصرف فيه 25% من مرتبي.

مرتبي الذي لا يكفيني منذ أن تزوجتُ، ولذلك قررت زوجتي أن تساعدني من خلال أن تعمل في مكتبة بمدرسة خاصة، أمينة مكتبة،

فذلك هو المُتوفّر وإما أننا لن نعيش.. مع إن مرتبها بسيط جدًّا ولكنه يغطي العجز في مرتبي الشهري.

اليوم هو 22 من الشهر..

ولقد مرضتْ زوجتي منذ يومين، وكان لا بد أن أصرف عليها بعض المال، ذلك الأمر الذي جعلني أصنعُ فجوة كبيرة في الميزانية الشهرية، ولا يكفي المال لأول الشهر، قضيتُ كل تلك المسافة وأنا أفكر في المرض المفاجئ الذي تعرَّضت له زوجتي الحبيبة والذي سيُظهِر التحليل الذي أجرته اليوم سببه.

ولكن ما يقلقني حقًّا أن يكون كما قالت أمي:

– مبروك هتبقى أب قريب.

ذلك ما أدهشني وفاجأني، فلقد اتفقتُ معها ألا يحدث ذلك قبل سنتين من الآن حتى تكون الأمور أكثر أستقرارًا، وإن أتى الآن ماذا سأفعل؟ حتى أني لا أعرف كيف سأقضي بقية أيام الشهر؟ هل أقترض؟ ولكن كيف سأسدُّ الدين وأنا راتبي بسيط؟

تساؤلات كثيرة تحوم فوق رأسي وتشغلني عما يحدث حولي من ضوضاء في المترو، ومع ذلك شيء ما جذبني وكأنه كان ضوءًا وسط ظلام أفكاري التي كنتُ أفكر فيها، ببريق يجذب نظري وسط الركود الممل.

كان هناك أحد هؤلاء الشباب الذين يفعلون أشياء غريبة، كان يرتدي ملابس البطل الخارق "سبايدرمان"، ذاك الرجل الذي قرصه العنكبوت، وأصبحت لديه قدرة العنكبوت في صناعة الشباك، وتسلُّق الجدران، وهكذا أصبحت لديه القدرة الخارقة على مساعدة الناس، فهل تستطيع تلك النسخة المقلّدة منه مساعدتي وتُوفِّر لي أموالًا تغطي عجز الميزانية الشهرية، وتعطيني أموال لأضمن لذلك الزائر الجديد مستقبل أفضل من واقعي وحاضري الذي لم أختره؟

بالطبع لا يقدر، ولن يقدر ذاك الشخص الذي لا يفعل سوى حركات بهلوانية بجسده النحيل، إنه مجرد بلياتشو بملابس بطل خارق يحاول إضحاك الجميع، في تلك الأثناء استوقفه أحدُهم قائلًا:

– إنت بتعمل كده ليه؟.. إنت عارف إني ممكن أسجنك دلوقت وأعملك محضر؟

وقف ذاك الرجل، وخلع قناعه وقد أدى حركة من تلك التي كانت إحدى الحركات الممنوعة في قوانين الخارقين، ونظر لنا نظرة حادة قائلًا:

– أنا بعمل كده علشان تضحكوا، مش علشان شهرة ولا حاجة، والكاميرا دي علشان أخلي الناس تبتسم في بيوتها وتبدأ تقلدني.

ارتدى قناعه مرة أخرى ليحاول إضحاكنا، وأكمل حركاته البهلوانية، وذلك ما زاد من غضبي وجعلني أقف وأواجهه:

– قبل ما تحاول تضحكنا حاول تحل مشاكلنا،مش أنت برده بطل خارق، أنا مشكلتي إن مرتبي مش مكفيني ولا أنا ولا مراتي، وكمان زاد الطين بله لما عرفت أمبارح إن فيه زائر جديد جاي تخيل بقا يا أستاذنا، وتقريبا 70% من اللي قاعدين في العربية هنا مرتبهم مش مكفيهم وعندهم مشاكل كتيرة، فيهم اللي عايز يجوز بنته ومش لاقي فلوس يجهزها، ومنه اللي بيحب ومش لاقي فلوس يشتري شقة، ومنهم اللي عليه فلوس ومش عارف يسددها، لم تحس بجد إنك تقدر تحل مشاكلنا دي أبقا ساعتها تعالى ضحكنا.

نظر الجميع لي، وشعرت بأنهم يريدون التصفيق ليّ بعد تلك الخطبة التي قلتها له.

اقتربَ منه صاحب الكاميرا وأمسك بيده ليخرجوا من العربة، ولكنه رفض وأتى نحوي قائلًا:

– أنا عارف مشاكلك، والمشاكل اللي أنت نفسك ما تتخيلهاش، بس اللي أقدر أقولهولك إني بطل خارق مش علشان أقدر أحل مشاكلك، لا بس علشان في ظل مشاكلك دي كلها قدرت أضحكك، أو على الأقل أخليك بتبتسم وساعتها وأنت ماشي مبتسم هتقدر تخلي أكتر من شخص يبتسم، والابتسامة تدل على الرضا بقدرنا.

وبدأ مرة أخرى يفعل ما كان يفعله، والجميع ينظرون له بدهشة كبيرة حتى أنا اندهشتُ مما يفعله من تلك الحركات وتلك الأفعال التي يفعلها والتي تجعلني أبتسم، حقًّا إنه بطل خارق وقوته الخارقة ليست قوة مادية بل قوة معنوية، إن سلاحه هو "الابتسامة الخارقة" التي لم تتوقف عند مشكلاتنا بل برغم الظروف التي نعانيها جعلتنا نبتسم جميعنا، حتى أنا ابتسمتُ ابتسامة كبيرة وأنا أنزل من العربة فكبريائي منعني أن أبتسم في العربة.

ما أجمل أن ترضى بقدرك كما قالها ذاك البطل الوهمي حقًّا.

وحينها ظهرت ليّ فكرة، لماذا لا أترك ذاك العمل كما اقترحت زوجتي العزيزة سابقًا، وأن أجد عملًا آخرًا يكفي أسرتي ومسؤلياتي العديدة.

برغم كل الصعاب التي سأواجهها إنه الحل الأفضل إلى الآن.

خاتم سليمان

ماذا لو أُتيحت لك أن تتمنى أمنية واحدة، ماذا يستحق أن تتمناه؟

***

يرتدي ذاك الحذاء القديم، الذي تم خياطته أكثر من مرة، وذاك البنطال البالي، أم الجاكتة فلقد ترهلت وخرجت الخيوط من مرقدها وتحرَّرت العُقد من جوانبها، ومع ذلك ما زال بداخل تلك الملابس روح تسير بجسد اقترب من نهايته، فلقد وصل لسنٍّ لا يمكن فيها أن يستمر لولا ذاك الهمُّ الذي يحمله على عاتقه منذ أن خرج للدنيا.

يحمل ملفًّا ليترله لذاك الأرشيف الذي اعتاد أن يفعله منذ فترة ليست بقصيرة، إنها فترة قد استنفدت من عمره ما لا يستطيع أن يسترجعه، ولقد كان قد كتب بمفكرة من شهرين بتغيير اللمبة لأنها قد تحطمت، ولقد تم الموافقة على تغيير اللمبة أخيرًا وإنارة الأرشيف لضوئه المعتاد وانتهاء عهد الظلام البائد.

ومع الإنارة الجديدة لاحظ أن هناك شيئًا يلمع أسفل الملفات، لمعته كأنها مصدر لضوء آخر لامع باصفرار يخالطه ضوء أحمر.

اقترب منه وبدأ يُخرِجه من أسفل الخشب الذي حُبس فيه، كان خاتم به جوهرة بها كل الألوان التي ممكن أن تتخيلها يومًا وألوان لم ترَها عينُ إنسٍ من قبل.

ارتدى الخاتم لتتسع الغرفة مرة واحدة، ويظهر في منتصفها كرسي مُذهَّب كالعرش، يتوسط الغرفة، ويعلوها بعدة درجات، ذهب له غير خائف، وجلس على العرش ليظهر له جانٌّ كثيرون من كل حدبٍ وصوب يركعون له وكأنه أصبح حاكمهم، كانوا ينادونه بسليمان، ولكنه أخبرهم أنه ليس النبي سليمان عليه السلام.

غضبوا جدًّا عليه، وشعروا بالإهانة الشديدة؛ لذلك قرروا أن يعاقبوه، ولكن ظهر أحدهم مقترحًا أن يعطوه أمنيةً واحدة يحققونها له وأعطوه 24 ساعة حتى ينتهي من التفكير.

رَجَعَ للعمل وكأنه لم يمر على ذلك سوى دقيقة، وظنَّ أنها تهيأت ولكن وجد الخاتم بين أصابعه فطلب إجازة ليريح عقله وجسده وليستطيع التفكير بطريقة جيدة عما ستكون الأمنية التي ستريحه طيلة عمره.

عندما وصل المترل دخل غرفته طالبًا عدم الإزعاج خلال جلوسه بمفرده، أمسك ورقة وقلمًا وقام بمسح نظرته الطبية جيدًا وبدأ يكتب ماذا يريد.

أوَّل ما فكر فيه هو العمل، فسأل نفسه:

متى كانت آخر شكوى أو احتجاج قدَّمها عن العمل؟

ولكنه لاحظ أنه لم يَقُمْ بذلك منذ ما دخل المصلحة، لم يفعل شيئًا سوى العمل، لم يتغيَّب يومًا واحدًا عنه حتى شعر بضيق وكأنه مَلَّ من نفسه.

وقفَ وأشعلَ لفافة تبغٍ ونظر للمنطقة التي يسكن فيها، شعر كم هي مملة وملئية بغوغائية وبشر مملين سُذج وحمقى وكسالى وسكارى، بصق من النافذة، وكأنه يبصق على المنطقة بالكامل، فكر في أُمنيةٍ تنقله من المترل الفقير.

فكر أن يترل ليريح عقله، ولكنه نظر جيدًا لحاكتة البدلة الممزقة تقريبًا، شعر بالإهانة منها كيف يتحمل أن يرتدي شيئًا قذرًا وممزقًا هكذا لا يرتديه غير حثالة المجتمع، كيف بعد أن عمل في الحكومة فترة طويلة تكون النتيجة أنه لا يستطيع أن يرتدي ملابس أكثر أناقة، وتكون سليمة عل أقل تقدير ماذا ينقصه لفعل ذلك؟

إنه ذكي ومثقف جدًّا وغير كسول ومرتب والجميع يحبونه؟

ماذا يحتاج أكثر من ذلك حتى يلبس كبقية البشر ملابس تجعل مظهره جيدًا؟

خرج، وهو غاضب من الغرفة ليجد زوجته تجلس على الأرض تحتها بطّة تقوم بإطعامها رغمًا عنها، امرأة عادية للغاية مثلها جعلته يفكر متى آخر مرة قام باشتهاء خلوتهما؟، ولكنه لا يكاد يتذكر.

جلس ليرى عائلته، وكيف ينظر له أولاده، كيف تختلف النظرات من عدم الاكتراث بوجوده لبعض نظرات الكُره، لبعض نظرات الغضب على جلوسه، وعدم إكماله لذلك اليوم الذي سيخصم من راتبه مما يؤثر على ميزانية الشهر القادم التي في الأصل لا تكفي.

شعر بكم التحطُّم الذي تُعانيه العائلة، شعر بكمِّ البؤس الذي يعيش فيه، وسأل نفسه سؤالًا:

ماذا ستكون أمنيته؟

أمسك بالقلم والورقة ليكتب القائمة.

– زوجة جميلة، وأولاد يحبونني وعمل أحبُّه وصحة وسكن جديد.

تسال إذًا:

– لمن كان يعمل طوال عمره؟ لمن تحمل قسوة العمل؟ لماذا فَقَدَ عمره هباءً؟

أسئلة عديدة تجول في خاطره، وكأنها تريد أن تخرجه من متاهة قد سُجن فيها، وتساءل مرة أخرى عما يوجد داخل القائمة.

إذا كتبَ زوجة جميلة إذًا لماذا تزوجتها؟ لماذا وافقتُ عليها ولماذا لم أُطلّقها؟

وإذا كتب أولاد يحبونني فلمن أعمل؟ لمن أحارب يوميًّا؟ لمن ضاعت صحتي؟ وإذا لم يستحق من أضعت صحتي من أجله فلماذا أضعتها؟

وأين أسكن؟ مجرد بيت قابل للهدم بملابس ممزقة؟

إذًا لماذا ذاك العذاب الذي أرهق جسدي؟

ماذا قد أستفيد في دنياي غير الألم والفقر وصحة قد هربت من جسدي منذ أن قررت أن أعمل؟

ولكن السؤال الآن:

ماذا أريد؟

دخل إلى غرفته مخفيًا الخاتم تحت السرير، ونام وبلا عودة من كثرة الحسرة.

***

في العالم الآخر حيث كان الجميع يتأهب للأمنية المعهودة تساءل البعض من أعطاه الأمنية:

لماذا لم نقتله؟

الموت سيكون راحة بالنسبة له.

كيف؟

لأن الأمل بمستقبل باهر يجعلنا نرى كم هو سوء الحاضر، كم هو حاضرنا المتعفن، وماضينا القذر، وحينها نتحسر على ما حدث، ولا نفكر فيما سيحدث وذلك أكبر عذاب من قتله بسلام.

نظر الجميع له بإبهار وصفقوا له تصفيقًا حارًّا وقال أحدهم:

– أعلم الآن مدى كُرهك لبني جنسهم يا إبليس.

العانِس

(1)

– أمسكوها لكي تتوقف عن ضرب ابنتها، فإنها فتاة صغيرة لا يتعدى سنها اثنى عشر عامًا تقريبًا..

هكذا قالت أكثر من سيدة في العربة.

***

(2)

ما أكثر ما يجعل الحياة مملة!

هل ذلك الشكل الذي وصل له وجهي، من التجاعيد التي أصبحت ظاهرة عليه مع أن عمري لم يتعدَّ خمسة وثلاثين عامًا، ولكن ممن حولي يقولون إن السبب وراء ذلك هو أني لم أتزوج بعد.

نعم.. أنا عانس.

فما أجمل أن تعيش حرة نفسك، ولكن في مجتمعنا أصبحت كلمة عانس كفيلة بأن تجعلك أسيرة لعادات وتقاليد المجتمع، أسيرة لتلك النظرات القاتلة والتي تخرج من أعين كل من حولكِ. حتى أنكِ تصبحين سجينة لأفكارهم التي لم يقتلها الزمن، بل إن الأفكار من تلك النوعية الرجعية تحكم عقلولهم.

أربعة وثلاثون عامًا وسبعة أشهر وخمسة أيام.. ذاك هو عمري الذي قضيته عذراء لم يمسني بشر، وحيدة بلا حضن يأوى أفكاري الخاصة، أذهبُ يوميًّا لعملي ثم أرجع لأساعد والدتي التي تقدم بها العمر، وفي انتظار لذلك الحفيد الذي طال غياب أبيه، ومن ثم أذهب لأُسجن في غرفتي بين أربع حوائط وجهاز الحاسب الآلي الذي يُخرجني من حالة العذاب لعوالم أخرى وبشر من كل أنحاء العالم، أتكلم معهم في المنتديات ومواقع الدردشة لعلي أصلُ لذلك الذي طال غيابُه.

***

(3)

نزلت من بيتها لكي تقابل حبيبها، ولم تستطع الذهاب للمدرسة في ذلك اليوم.

أكثر مما يضايقها أنها ستخرج معه بملابس الأطفال الذي يجعلها طفلة، ولا يُظهِر سنَّها الحقيقية وهو ثلاثة عشر عامًا وخمسة أشهر، ولكن الجميع يعلم أنها جميلة، شعرها الطويل الناعم، وجهها الأبيض، وخداها اللذان تريد أن تأكلهما والدتها دومًا، وكثير ما يشبهني ب "شيري عادل" تلك الجمال البريء.

تنهدت بصوت عالٍ عندما وصلت لمحطة المترو حيث ستقابله بعد خمس محطات من هنا.

***

(4)

كانت المشكلات في ذلك اليوم كثيرة عن المعتاد في العمل، وكانت أخطائي كثيرة وتقريبًا سيحولونني للتحقيق غدًا، والله أعلم ماذا سيحث غدًا..

أفكار عديدة تغزو عالمي، محاولة أن تجعلني أصرخ صرخة تم تخزينها بداخلي منذ أكثر من عشر سنوات.

ضغط المترل، وصراخ أمي الدائم وكأن العرسان واقفون أمام البيت وأنا لا أريدهم، مع أن آخر عريس كان منذ عشر سوات، وضغط العمل وتحرش المدير المستمر بيّ، مع ذلك لا يهمني ماذا سيحدث بي.

أخرجت من حقيبتها إحدى الروايات وبدأت في القراءة، وبدأ خيالها يعمل، وينسج تلك الخيوط التي تكون تلك الصورة الكبيرة،

لكي تعيش بكامل أحاسيسها مع الكلمات والصمت الذي تعشقه عندما يكون مصدره من داخلها.

ولكن هناك من قطع تلك الخيوط قبل أن تكتمل، كان صوت لفتاة صغيرة ممسكة بهاتف أكبر من يدها، وكانت واضعة لمكياج لا أضعه أنا وعمري 35 عامًا، وتتحدث مع أحد في الهاتف بطريقة جعلتها تشمئز.

كانت معتادة تلك النوعية من المكالمات، ولكنها لم تتوقع ردة فعلها مع تلك الضغوط العظيمة.

***

(5)

كان يومًا جميلًا.

إنها القُبلة الأولى، لا أعلم ماذا حدث لي؟

كل ما أعلمه هو ملمس شفتيه الناعمتين والطريتين، واللتين سحبتاني من ذلك العالم إلى عالم آخر.

أستطيع أن أفهم الآن لماذا تغلق الفتاة عينيها عندما تُقبِّل البطل في الأفلام؟

أنها تذهب لذلك العالم الذي ذهبتُ إليه، ما أجمله! وكم أعشق تلك الرومانسية؟

ومع ذلك أشعر بضيق بداخلي أو خوف لا أعرف مصدره، وكأن هناك شيئًا مقبوضًا عند قلبي أو قلبي هو المقبوض، وكأن هناك شيئًا سيحدث، هل هو عقاب من الله لي لأني كذبتُ على أمي، أم بسبب القبلة، أم الاثنين معًا؟

حينها كنت أتحدثُ معه على الهاتف، وأنا مستقلة المترو، وكنا نتحدث بكلمات لن يفهمها غيرنا لأنها لو أحد فهمها سيكون عقابها شديدًا، أعلمُ بذلك ولكنه هو من يحب أن يتحدث عن تلك الأشياء.

في تلك الأثناء لاحظتُ أن هناك من يراقبني.. كانت سيده كبيرة أظنُّ أنها في سن والديّ، نظرتها لي كانت تزداد شَرًّا لي كلما مَرَّ الوقت، وعندما نادتني دُهشت ولم أفعل شيئًا سوى أني اقتربتُ منها، وحينها سألتني تلك السيدة:

– كم عمرك؟

سؤال غريب غير متوقَّع جعلني لا أستطيع الإجابة عنه بسرعة وقلت:

– أنا.. عمري ثلاثة عشر عامًا ونصفًا.

نظرت لي نظرة فيها دهشة ولكنها ليست كبيرة ومن ثم سألت سؤالًا آخر:

– سمعتُك تقولين لأحد (يا حبيبي) مَن يكون يا ترى؟

أخافني ذلك السؤال جدًّا بسبب نظرتها لي، وكأني سأنال عقابًا منها، ولكني لم أكذب ولا أعلم لماذا، هل لأنها تُذكِّرني بوالديّ أم لأني أتحداها لا أعلم، ولكني قلتُ الحقيقة:

– إنه شخص تعرفتُ إليه عن طريق "الفيسبوك"، وقد رأينا بعضنا البعض لأول مرة اليوم، وقد أحببنا بعضنا البعض، هو في أولى ثانوي وقد وعدني عندما ينتهي من دراسته وأخذ الدبلوم سيطلب يدي ويخطبني.

هكذا انتهيتُ من كلامي معها، ولكني لم أستطع أن أقول كلمة زيادة أو أقل ولأن ما فعلته منعني عن فعل أي شيء.

***

(6)

عندما أخرجتني من العالم الخيالي الذي كنتُ قد بدأت بنسج أول خيوطه، أصبحت أضع كل تركيزي على تلك الكلمات التي تقولها والتي كانت بديهية، وأي شخص عاش مراهقته جيدًا، سيفهمها دون تفكير طويل، وكانت الكلمات تدور حول قبلات وأحضان، هل تلك الدرجة من السفالة التي وصلت لها تلك الأجيال، ومع ذلك إنها فتاة جميلة وتُشبه كثيرًا "شيري عادل" تلك الممثلة الشابة، ولكن ما باليد حيلة سأصمت، وهكذا قررتُ، ولكن الفضول يقتلني، وكنتُ أريد أن أتأكد أن تلك النتيجة التي توصلتُ لها من حقيقية، وكأني أصبحتُ شرطية من إحدى تلك الروايات التي أقرؤها يوميًّا.

وبالطبع قمتُ بندائها حتى أتأكد، ولم يستطع قراري من كسر حدة الفضول بداخلي، وعندما تحدثت معها وقالت تلك الكلمة ولم أشعر سوى بالأدرينالين وهو ينتشر بجسدي بالكامل، وتحركتُ من مكاني ويداي تضربان فيها بقوة كبيرة، حتى أني رأيتُ دماء على

وجهها، بعد عدة خبطات، وبعض العضِّ في يدها وبعض المناطق الأخرى.

– أمسكوها لكي تتوقف عن ضرب ابنتها، فإنها فتاة صغيرة لا يتعدى سنُّها اثني عشر عام تقريبًا.

هكذا قال أكثر من سيدة في العربة.

ظنَّ كل مَن يسحبها من أسفل جسدي، أنها ابنتي، ولكن بعد أن اكتشفوا أنها ليست ابنتي ظنوا أني مجنونة، وبدأ الجميع يتحاشاني، بسبب فتاة بل جولييت صغيرة.

***

(7)

بعد أن تم نجدتي من تلك السيدة المجنونة، وجدتُ نفسي قد وصلت لمحطتي، فنزلت مهرولة للبيت محاولة إخفاء ما حدث، وأنا أبكي وأعلم أن ذلك عقاب من الله، وإن كانت علمت أمي لكان زماني ما زلتُ أُضرب حتى الآن.

ومع ذلك لقد وجدتُ سببًا مقنعًا لأقوله لوالدتي أن هناك واحدة منقبة قد ضربتني في عربة السيدات بسبب شعري، وكانت تريد قص شعري لولا تدخل بعض الراكبات.

لا أعلم لماذا هدأ قلبي عندما أتت تلك الفكرة لي وذلك بعد سماعي في الأخبار أنه منذ أكثر من أسبوع إن ذلك حدث في الحقيقة، ما أجمل أن تجد فائدة للأخبار.

(8)

بعد أن نزلت جولييت الصغيرة، وجدتُ أن الجميع ينظر لي في تساؤل أسأله لنفسي..

لماذا فعلتُ ذلك؟

لم يكن عقليْ في حاجة لأسئلة، والآن أصبح يجتاح عقلي مئات من الأسئلة غير قادرة على الإجابة عنها، أو بمعنى أدق أعلم إجابتها ولكني لا أريد أن أواجه نفسي.

أعلم أن كل ذلك ردة فعل عادية من فتاة تعدت سِنَّ الزواج بمراحل، وكل الضغوط التي تعيش فيها بسبب أنه لا أحد يتقدَّمُ لها، هل نتحدث الآ عن المثالية وكلام الفلاسفة الذي لا يمتُّ للواقع بأي صلة.

هل تريد أن تتكلم عن حب الغير، كيف وقد خسرت حبيبي منذ عشر سنوات بسبب كلام الناس؟

لماذا أُطبِّق عادات وتقاليد لا أؤمن بها، مع ذلك أحببتُ نظرة الخوف في عينها عندما شعرت بأن ردة فعلي لن تكون مسالمة لها، وإن كانت وصلت للدرجة النضوج ما يزيد عن الحاجة فما زال بداخلها قلب ينبض بالحياة، يريد أن يعيش وأن يتمتع بالحب والحنان وأشياء عديدة لم تكن متوافرة لديَّ منذ أكثر من عشر سنوات.

ما أصعب كلام الناس! وما أصعب أن تتحول حياتك لتكون جزءًا من ذاك الكلام الذي لا ترضاه!

توقَّف تفكيري عندما أتت محطتي ونزلت لأذهبَ لسجني المعتاد، أمام شاشة "اللاب توب" ونسيتُ ما حدث لأني أعلم أنه سيتكرر لا محالة.

شنطة سوداء

أستاذ علي عبد الغفار...

هكذا سينادونني، وهكذا سيسبق اسمي ذاك الألف الذي طال انتظاره.

فلقد أصبحتُ معلمًا في مدرسة ثانوية، أشعرُ بفخر شديد لذلك، وأشعر بأني سأُغير الكون، فكوني معلمًا ليس بالشيء الهين فإني مسئول عن تغيير أجيال قادمة عن طريق إعادة ترسيخ الكثير من المبادئ المفقودة بعقول هؤلاء التلاميذ، وتبسيط مفاهيم قد نسوها مع مرور الدهر.

المدرسة بعيدة عن بيتي، ولكن لا يهم، فأني أركبُ 7 محطات مترو، وأركب مواصلة، أو أذهب سيرًا على الأقدام إن لم يكن عندي حصة أولى.

إنه اليوم الأول لي في الدراسة، فسوف يبدأ العام الدراسي، وكنتُ أشعر فيه براحة نفسية كبيرة لم أعهدها منذ موت أبي، ولذلك تذكرته وشعرت باشتياق كبير له زاد من راحتي النفسية.

فلقد تُوفيَ والدي منذ خمس سنوات، وكنتُ أريد أن يكون على قيد الحياة حتى يرى ابنه وهو معلم كبير، ويسبق اسمه ذاك الألف، وكنتُ أشعر أني كمن أخذ البكوية أيام الملك.

انتهى اليوم الأول في ظل عدم رضائي عن أدائي الذي كان سيئًا جدًّا، في ظل عدم السيطرة الكاملة على بعض الفصول، مع ذلك لم تتأثر راحتي النفسية وذلك فإن ما أدهشني صبري وقدرتي على تحمل العمل، يجعلني ذلك أشعر بتلك الراحة، ولكني لم أفكّر فيما حدث، وكأنه لم يحدث.

ذهبتُ لمحطة المترو سيرًا على قدمي والتي تبعُد عني مسافة كيلو متر تقريبًا، أي عشر دقائق، وفي أثناء سيري رأيتُ أحد الأشخاص ينزل من سيارة سوزوكي، ويحمل في يده شنطة سوداء اللون، شكلها غريب، ولكن الأغرب أنه دخل معي المحطة، والمحطة مزدحمة جدًّا، وفي وسط الزحام لم أجده، وأظنُّ أنه خُيِّل لي، حتى رأيته مرة أخرى ولكن لم تكن معه تلك الشنطة غريبة الشكل، تعجَّبتُ متسائلًا عمَّا يحدث، ولكن كلما مَرَّ الوقت زاد الخطر أظنُّ أنها..

لم أكمل تفكيري وذهبتُ مسرعا للنقطة التي توجد بداخل المحطة وأقرب أمين شرطة قلتُ له:

– هناك قنبلة في المحطة، امنع المترو واجعله يتوقف.

فَزِعَ الرجل وأخذني بيدي للكاميرات وقال لي:

– انظر جيدًا، أين توجد القنبلة؟

فأشرت إلى الرجل وقلت له ما حدث باختصار شديد، فذهب حاملًا مسدسه لذاك الرجل، ومن ثم أوقعه على الأرض.

أعلن المذيع الداخلي إن المحطة ستُخلى لوجود قنبلة.

في تلك الأثناء تذكرت تلك الراحة التي أشعر بها منذ الصباح، واشتياقي إلى والدي، ولا أعلم لماذا تذكرتُ كل شيء في حياتي وكأنه شريط يُعرض عليّ في تلك اللحظة، ولكني أوقفتُ تلك الأفكار وبدأتُ أضع تركيزي كله مع الضباط لنجد حلًّا لإنقاذ أرواح كثيرة قد تموت هباء.

انتشر كل أمن المحطة على الرصيف محاولًا إيجادها، والشرطة تبحث معهم وأنا أساعد بقية الأمن في البحث عن المكان الذي ألقاها فيه، ولكننا ذهبنا إلى غرفة الأمن وبحثنا في شريط الكاميرا خصوصًا بعدما رفض الرجل البوح بأي كلمة وقد وجدنا هناك لَقطة كان معه تلك الشنطة، ولقطة أخرى لا توجد معه، فبحثنا في تلك المنطقة ولكننا أيضًا لم نجدها.

حينها وصل ضباط المفرقعات، والبحث عن القنبلة، في كل أرجاء المحطة، والوقت يمر، وذاك الرجل لا يريد التحدث وينكر كل شيء.

وبعد مرور عشر دقائق سمع الجميع صوت انفجار كبير بالقرب من محطة المترو أسرع بعض ضباط المفرقعات إلى هناك فوجدوا أن القنبلة كانت هناك وقد انفجرت.

وعندما دقّق الضباط اكتشفوا أن أكثر الصناديق خالية ولا يوجد فيها شيء، وذلك قلما ما يحدث، ولذلك راجعوا شرائط التسجيل، علموا أن أحد العمال كان يقوم بتجميع القمامة من الصناديق في شنطة سوداء كبيرة ولم يلاحظ شيئًا، وقام بإلقاء القمامة كلها في صناديق القمامة بالقرب من المحطة، أي إنه حمل القنبلة وألقى بها في صناديق القمامة خارج المحطة.

ابتسم الجميع وعاد المترو ليعمل مُجدَّدًا، والرجل أُحيلَ مباشرة بعد كتابة المحضر للنيابة وذهبتُ معه أنا وذاك العامل البسيط للإدلاء بشهادتنا.

وبعد ذلك قام أحد الصحفيين بالحديث معي على أني البطل الفعلي، وقد نزلت صورتي بالجريدة في صباح اليوم التالي، وكانت صورتي في الصفحة الأولى لإحدى الصحف اليومية المشهورة ومكتوب عليها:

"المُعلم الخارق ينقذ مئات الأرواح"

وكانت راحتي النفسية قد وصلت للقمة وشعرت حقًّا بأني بطل، وقد أنقذت مئات من الأرواح حقًّا، وعندما وصلت للمدرسة استُقبلت من هيئة أعضاء التدريس استقبال الأبطال، وتم تكريمي خلال الإذاعة المدرسية.

واستطعتُ السيطرة على كل الفصول الصعبة، والتي كان السيطرة عليها شبه مستحيل، فقد اعتبرني الكثير من الطلبة بأني بطل، خصوصًا في تلك السنِّ دائمًا ما يحتاجون لقدوة تقف بجانبه، ودائمًا ما يحتاج لبطل خارق، ولكنهم وجدوا معلمًا خارقًا كما وصفتني الصحافة.

وأظنُّ أن تلك فرصة ذهبية لكي أُغير فيما حولي من أشياء سيئة، ولكني قد لاحظت أن سيرة الإعلام عني فقط، وليس عن ذاك العامل البسيط الذي هو بالفعل المنقذ الأول، شيء جعلني أشعر بالضيق ومع ذلك جعلني أكثر إصرارًا على محاولة تغيير تلاميذي.

دم أكثر من اللازم

الصراحة كثيرًا ما تُدمِّر...

***

يخبرني الجميع أني لا أملك حتى رائحة الدم، ويقول الآخرون أني ثلاجة بشرية، فأنا لا أستطيع أن أُجمِّل كلامي ودائمًا صريح، لا أستطيع أن أخبر القبيح بأنه جميل فذلك ليس من طباعي، فأنا لستُ بمنافق.

لقد خسرتُ العديد من الأصدقاء بسبب تلك الصراحة، وكما يطلقون عليَّ "دبش"، حتى أني خسرتُ كل فتاة دخلت إلى حياتي، أو مَن يختارها قلبي.

ماذا تُخبِّئ لي الحياة أكثر من ذلك، ولكني ما دمتُ راضيًا عن نفسي فلن يهمني شيء، حتى أني قد خسرتُ عملي العاشر في تلك السنة أيضًا لأني صريح أكثر من اللازم ولا أملك رائحة الدم كما قالها المدير، فالصراحة الشديدة لا تلائم عمل البائع، لأنها تخسره زبائنه، ومن ثم لا يجد سوى الطرد في انتظاره.

هل هذا خطأي أم خطأهم...؟ هل لأني لست مثلهم؟

حيث إني لا أكذب أو أنافق وأفعل أشياء سيئة ليعتبروني مثلهم وقدوتهم، فكلٌ منا يختار ما يُشبهه في التفكير ليكون قُدوته.

الجميع يعتبرني فاشلًا، ولا أحد يريد صداقتي، الجميع يبتعد عني لأنهم لا يريدون أن يروا الحقيقة، حقيقتهم عندما أتحدث إليهم وأنقدهم تبدأ المشكلات، ومن ثم تلك الجملة التي حفظتها أكثر مما أحفظ اسمي:

– ليس لديك حتى رائحة الدم.

ولم أُفِقْ سوى عندما استوقفتني تلك السيدة، وأنا ذاهب لأشتري تذكرة، كان يظهر عليها أنها تعدت الثلاثين مثلي، ومع ذلك مظهرها جميل.

قالت لي بطريقة مهذبة:

– هل ممكن أن تتبرع بالدم؟

نظرتُ لها وقلتُ لها:

– ولكن أنا لا أملك حتى رائحة الدم.

صُدمت المرأة مما سمعت ذلك، وبعد لحظات قالت:

– كيف لا يوجد..حسنًا، لماذا لا تأتي ونرى بأنفسنا إن كان لديك أم لا يوجد، وحينها سنعطيك نحن.

ابتسمتُ فلقد استطاعت بتلك الإجابة أن تجعلني أهدأ من التفكير تمامًا، وجلستُ على ذاك السرير، وأمسكتْ بيدي ووضعت تلك الحقنة والتي سحبت مني الدماء، وذلك بعد أن طرحت عليّ بعض الأسئلة.

وعندما لاحظت الدم الذي يخرج من جسدي قالت:

– أليس ذلك بدم كثير، فلماذا تقول إنك لا تملك دمًا.

نظرت لها بنظرة رجل قد كسره الزمن قائلًا:

– لا أعلم، قد يكون ذلك بسبب لساني وليس دمي، فأنا لا أعرفُ أن أُجمِّل شيئًا، أنا أقول الأشياء كما أراها، فأنا كما قد تقولين عليّ (دبش).

ضحكت كثيرًا وقالت:

– مثلك قد انقرض منذ زمن، لم أتوقع أن هناك رجلًا صريحًا فلقد ظننتُ أنهم قد ماتوا في حرب أكتوبر، مع ذلك أنت مخطيء فليست الصراحة المطلقة جيدة، بل إنها قد تسيء غيرك كما تفعل أنت دائمًا.

ينظر لها في تعجبٍ قائلًا:

– هل ذلك يدلُ أن عليَّ أغش الناس، فأقول للزبون أن القماش نوعه ليكرا وهو ليس بذلك، بل إنه قد يضرُّ صحتهم، أقول لشخص إن ذلك يليق عليك وبطنه بارز للأمام مترين.

تضحك وتقول:

– أنت ظريف جدًّا.. حسنًا، ما رأيك فيَّ؟

صمتٌ من كثرة الدهشة والتعجب من ذلك السؤال:

– أنت جميلة ولكنك سمينة قليلًا.

وجهها انقلب، وأصبحت غير مبتسمة حتى، وتشعر أن هناك شيئًا يُحلّق فوق رأسها، وكأن الغضب أصبح متمثلًا في طائر يُحلّق باحثًا عن فريسته، تنفست بصوت عالٍ قائلة:

– أجمل شيء في كلامك هو نصفه الأول، ولذلك أنصحك بأن تتوقف عند النصف الأول،ولا تُكمل بقية كلامك، أي عندما أسألك ما رأيك فيَّ تقول أنت جميلة وتتوقف، أي إنك تكتفي بقول ما هو حسن وتتغاضى عمَّا هو غير ذلك إلا لو طُلب منك.

– كيف..؟

نظرتْ في السقف وأنزلت يدها لتزييل الإبرة وهي تقول:

– عندما يأتي أحدهم ويطلب منك بنطلونًا وسألك عن قماش اطلب منه تجربته، وإن أعجبه شكله فلن يفرق معه نوع القماش.

نظر لها بدهشةٍ مُفكّرا في الأمر:

– وهل ذلك غشٌّ؟

– أقلتُ شيئًا غير صحيح؟

– لا لم أقل ذلك.

نظرتْ له والابتسامة تملأ وجهها وتزيده إشراقًا وجمالًا:

– تستطيع أن تفعل ذلك في كل شيء حتى لا تخسر حياتك فكفى ما ذهب منها وأظن أنه كثير.

أعطته علبة عصير بدأ يشربها وشكرها، وأعطته ورقة لم يفتحها سوى وهو في المترو ذاهبًا لبيته وكان مكتوبًا عليها رقم تليفون وتلك الكلمات:

– عندما أُقِلُّ من وزني سوف أقابلك حتى آخذ رأيك.. سأنتظر مكالمتك.

ابتسم كثيرًا وتساءل:

هل تستطيع بالفعل تحمُّله وتغييره أم أنها كغيرها ستسأمُه قريبًا، وتقوم بتغيير رقمها كسابقاتها؟

فإن الناس وإن كانوا يحبون الصراحة، فإنهم أيضًا يخافون منها لأنها تظهرهم على حقيقتهم التي يهربون منها دومًا.

ونظر لمكان الإبرة وتساءل:

إذا كان لديه دم أم لا، ولكنه وجد في تلك المرة الإجابة:

أن عنده دمًا أكثر من اللازم.

الغريب الجنوبي

جاء من أقصى الجنوب باحثًا عن مأوى، باحثًا عن عملٍ يكسب منه قوت يومه، وما يجعله قادرًا على تحدي المدينة الكبيرة...

جسده الأسود الضخم يخيف كل مَن يحاول إيذاءه ولكن مع ذلك كان جبانًا جدًّا، إذا اعتبرنا أن الرجل المسالم جبان، فإنه طيب كالأطفال لا يستطيع حتى أن يفكر في إيذاء أحد.

ولكن أطفال المدينة أكثر شراسة، فإنهم دائمًا ما يقذفونه بالأحجار الملقاة في الشوارع، ويسبونه بأبشع الألفاظ، وكأن لون بشرته أصبح عيبًا، ألم يتربوا على سيرة بلال بن رباح –رضي الله عنه– وكأنه أصبح كالوحش أو شيء سيئ لم يعتادوا رؤيته، ولكن الأيام القادمة سيملأ قومُه مصر كلها بسبب تهجيرهم من أراضيهم.

بعد بحث طويل عن عمل ومأوى وجده ولكن كبوابٍ في عمارة عبد الحفيظ باشا والقريبة من ميدان رمسيس.

عَملَ هناك ولكنه كان وحيدًا لا أهل، لا زوجة، لا أطفال يملؤون عليه حياته، لا شيء بتاتًا سوى الجلوس وحيدًا صباحًا ومساءً، وإن كان يقضي الصباح في قضاء بعض المشاوير لسكان العمارة.

ولكن انقلبت حياته كلها منذ أن طلبت منه الست سوزي كما تعرف في العمارة أن يبحث عن الفأر أسفل السرير، وقضاء الليل كله بجانبها فوقه، شعر يومها بأشياء لم يشعر بها منذ فترة طويلة، منذ أن اختفى حقل الذرة عندما فاضت مياه السد وأغرقته.

كان أكثر ما يلهيه ويشغله عن همِّه صوت الست أم كلثوم، عندما يسهر الليل ويستمع لها وهو يشعل لفافة التبغ، والذهاب للسينما مساء كل جمعة.

وبعد عدة أيام شعر بأنه يتغير، شعر بأنه أصبح جزءًا من المدينة، ورُكن أساسي من أركانها، صعد لأعلى العمارة لكي يستطيع أن يرى كل بشر يسيرون على أقدامهم أسفل العمارة، كانوا صغارًا جدًّا من أعلى – وكان يحبُّ أن يراهم هكذا ولكنه تفاجأ عندما لم يجد نفسه الوحيد الذي يحبُّ أن يراهم هكذا، كان هناك ذاك الراجل الذي يعمل في الدور الثالث، كان مثله ومن قومه، ولكن من قبيلة أخرى من قبائل النوبة.

بدآ يتحادثان عن موطنهما، وعمَّا حدث للبلد بعد الثورة وتدمير أرضهم، وكان الآخر يشعر بألمٍ شديد كلما تذكَّر بلده، وكانت دموع عينيه تزداد وتمتلئ بدموع الحنين.

فردَّ عليه الراجل العامل:

– احذر من أن يصيبك ما يُصيب الغرباء.

تساءلَ الرجل في دهشة:

– وماذا يصيب الغرباء؟

وشعر بفضول كبير عن الذي يصيب الغرباء، ولكن تركه الرجل دون إجابة وكأنه يريد أن يجعله يعيش في حيرته للأبد، حيث إنهما لم يتقابلا مرة من قبل أو حتى مصادفة.

بعد عدة أيام عندما هدأ فضوله وبدأ يستعيد حياته الروتينية، ولكن كان هناك شيء غير مكتمل في حياته، إنها القراءة، أليس الحياة في المدينة تحتاج لمن يقرأ اللافتات والتنويهات أو على الأقل الجرائد؟

قرَّر حينها أن يذهب لأستاذ زكي الذي يعيش في الدور الرابع، وطلب منه تعلم اللغة العربية كتابةً وقراءة، وبدأ يحاول أن يأخذ الشهادة في الوقت نفسه، وكان الرجل يحب أن يساعد الآخرين فساعده، حتى أنه حاز بعد عدة سنوات شهادة الإعدادية، وأصبح يقرأ كتبًا كاملة لكثير من الكتاب، ويرجع لأستاذه لكي يشرح له ما لم يستطع فهمه، ولكنه كان ذكيًّا جدًّا، واستطاع في وقتٍ قصير أن يُعوِّض كل ما فاته من سنين عمره.

وبعد أن دخل الثانوية، قرَّر أن يغير جلبابه وأن يرتدي بنطالًا وقميصًا، وبدأ يهتم بمظهره الخارجي، وأصبح يجلس يوميًّا ليطلع على الجرائد وبجانبه كُتب للمازني والعقاد، وكان حبُّه للعقاد كبيرًا جدًّا خصوصًا لأن العقاد علَّم نفسه بنفسه، ولم ينتظر أحدًا ليعلمه كما فعل هو، وأنه أيضًا جنوبي.

مع أن أسلوبه كان صعب عليه في البداية إلا أنه أصبح أكثر سهولة مع مرور الوقت، مع تكرار قراءة الكتاب الواحد عدة مرات.

بعد أن أتم الثلاثين عامًا قرَّر أن يتزوج، ولكن من ترضى أن يتزوج ببواب، فلم يفكر كثيرًا، واختار فتاة تعمل في أحد البيوت، واتخذها زوجًا له، ولكنها كانت صاحبة بشرة بيضاء، وكانت جميلة بالنسبة لكثير من خادمات تلك المنطقة، لكنه لم يفكر، فكان لا يريد سوى شيء يغنيه عن الست سوزي التي كانت تستطيع أن تأتي به من حين إلى آخر.

وعندما دخل الجامعة أرسل برقية لأهله يطلب فيها عروسًا من طينته، وقرَّر أن يُطلِّق الأخرى، فمستواه الاجتماعي تغيَّر وأصبح يعمل موظفًا في إحدى المؤسسات الحكومية، ولم يعد ذاك البواب، ولكنها منعته من تطليقها بعد أن حملت بطريقة مفاجئة.

وصلت العروس ليعيش معها شهر عسل في إسكندرية، وليرجع ويعرفها إلى درتها، وجلس معهما وطلب منهما التعاون، لأن من تصدر عنها أي مشكلة فسيكون عقابها شديدًا.

ومع مرور الوقت أصبح لديه فتيات من عصبه ببشرة بيضاء وبشرة سمراء، ولكن قلبه كان يميل أكثر للسمراء، مع أنه كان يتظاهر بعكس ذلك.

كان ذاك الوقت بعد النكسة، وكانت مصر في خيبة أمل كبيرة، وانكسار ليس له حدود، فلم يكن أحد هؤلاء الذين انتشروا في شوارع القاهرة لكي يمنعوا الرئيس من ترك منصبه، بل كان أحد هؤلاء المثقفين الذي كان يعلم الواقع جيدًا، قرَّر الهروب لبلاده وذهب ليُودِّع شوارع القاهرة، وعندما وصل لعمارة عبد الحفيظ باشا صعد إلى أعلى، وقف فوق سطحها ينظر للمارة، وكأنه رجع لاشتياقه إلى ذلك المنظر.

وسط الصمت الذي يحيط المكان صعد ذلك الرجل الخادم، ووجده هناك، وقال له:

– ألم أحذرك من أن تصيبك "الأبابة"؟

نَظَرَ له الرجل وشعر بأن تلك الكلمة معناها لا يعرفه وأنها إحدى الكلمات النوبية الخاصة بالقبيلة الأخرى، ولكن الرجل بدأ يوضح أكثر قائلًا:

– أصبحت ترتدي بنطالًا وقميصًا، وتمسك في يدك كتابًا، وترتدي أعلى أنفك نظارة ولا تعلم ما هي الأبابة؟!.

لم يرد عليه بكلمة محاولًا فهم ما يرمي إليه الرجل، ولكن مع مرور الوقت، كان يجد أن فهمه درب من دروب المستحيل خصوصًا أن ذاك الرجل عجوز وصوته غير واضح، قرَّر أن يتركه حيث أوقفه الخادم قائلًا:

– إن "الأبابة" يا سيدي هو الداء الذي يصيب الغريب، داء أصعب من البلهارسيا التي قتلت الكثير من الجنوبيين أمثالك، إنه الحنين لموطن الغريب. فلقد حاولت أن تصبح جزءًا من أهل المدينة فتعلمت القراءة وارتديت ملابسهم، وتوظَّفت في مراكزهم، وأصبح مستواك الاجتماعي متوسطًا، ولكن بنظرتي لعينك أجد أنك لم تصل لأهدافك، فلقد ضعفتَ وتزوجتَ من طينتك وأظنُّ أنك تركت زوجتك البيضاء، إنك رجل تائه يؤذيه مرضه ولا يجد دواء له حتى بعد أن تعلم وأصبح أحد مثقفي الكون، رجل يبحث عن الاطمئنان والأهل، يريد أن يجد نفسه التي تربَّى عليها.

نَظَرَ له في حزنٍ شديد فلم يفهمه أحد منذ أن جاء ضالًّا لا يهتدي إلى طريقه الذي يسير فيه ابتغاء للأمان والهدوء والسلام الداخلي الذي لم يجده قط.

احتضنا بعضهما، فكل منهما قد أصابه داء الغريب، كل منهما يريد أن يموت في موطنه، في طينه.

بعد الانتهاء من حضن الصداقة التي طال انتظاره، ترك الخادم وحيدًا على سطح العمارة، مُقرِّرًا الرجوع لبلاده، وقد وجد دواء الداء، إنه العلم، قرَّر أن يذهب لينشر علمه بين أهل بلده حتى يستطيعوا أن يؤثروا في غيرهم وعندما ينتشرون في مكان يكونون دائما مميزين، ولا يضعفهم الداء.

فلقد أنقذه علمه فترة طويلة وجعله ذا مكانة كبيرة بعد أن كان مجرد بواب، فقد ضرب جوانب الأمور، وأصبح ملّمًا بالكثير من العلوم.

سأرجع لموطني الجنوبي لكي أقوده وأعدَّ جيلًا يستطيع مواجهة المستقبل بَعد أن قرَّر السد أن يفرقنا كما تتفرق حبات الأرز.

فراق

– لقد وجدها يا صديقي وجدها.

– مَن هي؟

– مَن جعلت قلبي يدق؟

– أكان لا يدق؟!!

– يا صديقي لقد دقَّ بنغمات الحب.

– أيها الشاعر اللعين.. لقد فعلتها.

***

تبتعد عنه وكأنها لا تريد الحديث معه، ينظر إليها في حيرة واستغراب، ولكنه صامت من هول الصدمة وكأنه ضُرب بصاعقة من فوق سبع سموات وأنزلته لسابع أرض...

أصبح صامتًا ولكن الضجيج بداخله لا يجعله يتمتع بالصمت، بل يجعل قلبه يصرخ كطفل قد فَقَدَ أمَّه توًّا.

– إذا مَن هي..؟

– إنها فتاة ليست بقصيرة أو طويلة، ليست نحيفة أو حتى سمينة، ليست بيضاء ولا بسمراء، أنها منفردة في كل شيء – فتاة عادية– فتاة بسيطة وما أبسط أن تكون بسيطًا، فالبساطة هي جمالها الخالص.

– لقد أصبحت كقيس يا صديقي.

– نعم.. أنا قيس، وهي ليلتي.

***

ابتعد كثيرًا عنها محاولًا كشف ما حدث، ولكن لا يعرف لماذا تفعل ذلك؟!

تساءل كثيرًا عما سيفعله الآن بعد ما حدث ولا يعرف كيف سيواجه نفسه بعد أن خسرها، هل هي تفعل ذلك حتى تزيد غلاوتها عنده؟ أسئلة كثيرة تنفجر في عقلة كقنبلة موقوتة؟

وإن كانت تختبر مدى حبه لها فهو يزداد عشقًا وولعًا بها، فإنها فتاته الأولى، فلن ينساها أبدًا، وهو على استعداد أن يفعل المستحيل لكي يثبت ذلك..

ألم يكن ناويًا اليوم أن يبوح لها بكل ما يُكنُّه قلبه لها؟

***

– إذًا هل قالت لك إنها تحبُّك؟

– لا.. لم تقل إنها تحبني، إنها فتاة بالعفاف تجمَّلت، وبالحياء تحصنَّت، وبالإيمان امتلكت قلبي.

– وهل ستبدأ بالبوح لها بما يكنُّه قلبك لها؟

– منتظر الفرصة المناسبة لأني أخاف أن أغزو عالمها بكلمات قد لا تعني لها الكثير، وتعني ليّ كل شيء.

– الانتظار قد يقتل يا صديقي.

– الانتظار هو مفتاح الفرج يا صديقي.

***

لم يمر عليهما غير أيام قليلة قد لا تتعدى أسبوعًا واحدًا، كانا قريبين جدًّا في تلك الأيام، لقد كانت قريبة منه أكثر من أخته التي تعتبر أقرب شخصٍ له في الكون..

أسئلة عديدة قررت أن تثور في خاطره، ولا يستطيع إعلان حالة الطوارئ وحظر التجوال لمشاعره لأنها ليست ثورة عادية، إن المشاعر كلها قد نزلت وأعلنت إضرابًا شاملًا لكل أعضاء جسده فقد أصبح في حالة مزرية من عدم التوازن العقلي والجسدي.

***

– هل يوجد نوعٌ من أنواع الإعجاب المُتبادَل؟

– لا أعلم غير أني لا أفكر في سواها...

– يا صديقي احذر من غدرهنَّ، فإن كيدهنَّ عظيم.

– ولكنها بلا كيد، وكأن الله اصطفاها لكي تكون رسوله للمحبة والسلام، لتغير أفكارنا السيئة عن النساء، وكأنها أصبحت ملاكًا، وترفعت عن خبائث البشر.

***

دخل إلى محطة المترو ووقف على الرصيف وكانت هي تقف على الرصيف نفسه، ولكنها كانت واقفة عند عربات السيدات، وهو عند نهاية القطار...

عينه لا تزل من عليها فإنها ليلاه، وكأنه ظنَّ أن ليلاه لن تنتهي أبدًا وسيظل دائمًا في ذلك الظلام المُحبَّب لقلبه، ولكن كلما اشتدَّ ظلام الليل كان الشروق قريبًا، وهل ذاك يعني أن شروقًا آخر سيظهر في حياته فيختفي الليل إلى غير عودة، وتذهب ليلاه إلى عالم آخر...

لشخص آخر....

***

– حسنًا..أيها العاشق، ما خُطتك لكي تعترف وتكشف أسرارك كلها لفتاتك؟!

– لا أعلم، ولكن بالتأكيد عندما يملك قلبي شجاعة كافية سأذهب بلا تردُّد.

***

ركبا القطار نفسه، وكأن القدر لا يريد أن يُفرِّق بينهما، وقد اجتمعا في قطار واحد، تمنَّى حينها أن يكون ذاك هو قطار حياتهما، وأن يرجعا لبعضهما البعض ويستمرا معًا للأبد.

ولكن بعد محطتين نزلت وتركته في القطار وحيدًا، واستطاع أن يراها لأنه في نهاية العربات سيرى أي شخص خرج من القطار، واقفة أسفل الساعة التي توجد عند عربات السيدات تقريبًا، وحيدة يائسة وكأن هناك شيئًا يؤلمها، قرَّر حينها أنه سيترل المحطة القادمة داعيًا الله أن يجدها حتى يساعدها ويعترف لها بحبِّه لها...

أتت المحطة بسرعة، ولكن بالنسبة له كأن دهرًا قد مرّ، صعد مُسرعًا للرصيف الآخر، منتظرًا قطار قدره الذي سيجمعه بحبيبته، بحياته، بعمره الذي تركه على الرصيف وحيدًا يائسًا متألمًا...

واستطاع أن يلحق بالقطار في اللحظة الأخيرة كالأبطال، وشعر حينها أن القدر معه، وسيجتمع بها مرة أخرى الآن ولن يستطيع أن يفرقهما سوى الموت...

وابتسم وضحك قليلًا لأنه شعر أنه جزء من فيلم رومانسي، البطل يذهب إلى حبيبته في آخر لحظة لينقذها من الانتحار..

الانتحار!

***

– إذًا سأذهب للبيت.. هل تريد شيئًا قبل أن أذهب؟!

– حسنًا.. لكن اطمئن، سأكون قريبًا (قيس).

– هذا أكثر ما أخاف منه يا صديقي.

– لماذا؟!

– ستعلم عندما تصبح (قيس).

***

توقّف القطار..

قلبه ينبض بشدة لدرجة أنه يسمع صوته وكأنه يدقُّ على صدره يريد الخروج، وكأنه سيواجه الموت، فإنه سيواجه الآن المستقبل

المجهول، يفكر في مليون شيء مختلف، ما أصعب أن ترى المستقبل بين يديك لا يفرقك عنه سوى قرار!

كان الفاصل بين الرصيفين هو القطار، القطار الذي يمنعه أن يرى حبيبته، ولكي يرى حبيبته وحياته لا بد أن ينتظر مغادرة القطار أو يصعد إلى أعلى لكي يُغيِّر للرصيف الآخر..

ولكن دقات قلبه ونَفَسه السريع والحمل الثقيل الذي يحمله على صدره يمنعه من التفكير السليم، فوقف واضعًا ظهره على الحائط حتى لا يقع، متمنيًّا عندما يراها أن يهدأ كثيرًا..

أغلق القطار عرباته مستعدًّا للرحيل، واستعدَّ هو أيضًا لكي يرى حبيبته، انطلق القطار ببطء شديد ثم تضاعفت سرعته إلى أن اختفى من القضيب الذي أصبح خاليًا من أي عائق يمنعه من رؤيتها....

– ستعلم عندما تصبح (قيس).

رنَّت تلك الجملة في أذنه، رنة زلزلت قلبه الذي عجز عن الحركة، رنة جعلته يتوقف عن الحركة ولكن ليس فقط من الجملة ولكن من رؤيته لها، أراد أن يصرخ كما يصرخ قلبه، ولكنه لم يستطع، وأصبحت أعضاء جسده كلها رافضة أن تستمع لعقله العاجز الذي لم يستطع فعل شيء سوى الجلوس.

إنها هي! مبتسمة، الفرحة تملأ وجهها، تمسك يد ذاك الشاب، وجسدها كله يتحرك تجاهه بلا وعي منها، اعترافًا من جسدها له بالإعجاب الشديد ويريد الاعتراف بإعجابه عن طريق حِضن...

وَقَفَ مِن ذاك الضعف، محاولًا إظهار قوته وعدم ضعفه مُقرِّرًا الخروج من ذاك النفق، واضعًا التذكرة في الماكينة، تحرَّك جسده نحو الدرج، صَعَدَ إلى الأعلى وكانت الأمطار تغسل الشوارع فسار فيها لتختلط دموعه بتلك الأمطار، وكأنه يريد تبريد الصدمة، وكأنه ميت يريد الاغتسال تحت المطر، يغتسل من خطايا فكره الذي اختار فتاة لم ولن تحبه.

فقدْ تَرَكَ التجربة في النفق وقرَّر ألا يدخل مرةً أخرى ذاك النفق.

زومبي

لا تغير أحدًا لا يريد أن يكون كما تريد....

***

كعادته ذهب تلك الليلة لكي يرشَّ ذاك المسحوق الذي صنعه، والذي يطلق عليه المياه المباركة التي تُهدِّيء عذاب القبر.

هكذا كان يقول للتربّي عندما كان يتساءل عمَّا يفعل، ولكنه يصمت في النهاية عندما يجد ورقةً من فئة الخمسين جنيهًا في يده.

كان المسحوق عبارة عن مواد كيميائية تعمل على تنشيط الخلايا العصبية، وتكوِّن نوعًا من أنواع الفيروسات التي تتحد مع إفرازات الجسد الميت لكي تجعل العقل ينشط مرة أخرى ويخرج ذاك الميت من سُباته العميق، ولكن عندما يستيقظون تتولَّد عندهم الرغبة في الدماء، رغبة شديدة وكأنهم تحولوا لمصاصي دماء لأنهم يشعرون أن ذلك ما ينقصُ جسدهم.

لكن مهما يفعلوا لا يرجع جسدهم لطبيعته، فمنهم مَن يظل جسده يتحلَّل حتى يختفي، ومنهم مَن يتوقَّف جسده عن التحلُّل وتبدأ الخلايا تُعيد نفسها مرة أخرى ولكن هذا ما نادرًا ما يحدث، فجميعهم بطيئو ردة الفعل.

وبعد عدة دقائق من رش المساحيق، والمياه المباركة، شعر بحركة غريبة تهزُّ الأرض، وكأن هناك مَن يريد الخروج، ذهبَ مُسرعًا إلى أعلى أحد المدافن منتظرًا صعود خروج أحد الموتى والذي طال انتظاره..

كان مَن استطاع أن يخرج، يسير بكسلٍ وبطءٍ شديد لا يعرف إلى أين يذهب ولا يعلم كيف استطاع الاستيقاظ، وأظنُّ أن هناك جزءًا كبيرًا تحلَّل من عقلهم جعلهم يصبحون بذلك البُطء الشديد، انتظر مدة طويلة محاولًا نشر رائحة العفن حوله حتى لا يستطيعوا استنشاق رائحته.

وبعد فترة خرجت حبيبته، ولكنها كانت عارية تمامًا.

ما أقذر الإنسان!

هكذا ردّد بعد أن رأى الموتى يسيرون أمامه والديدان تخرج من كل جزء من أجسادهم.

وعندما وجد حبيبته تسير أمامه هرول ذاهبًا إلى سيارته، وأخذ حبلًا وغطاء، وذهبَ إلى حبيبته بالسيارة وخرج منها فألقى عليها الغطاء، فلقد ماتت منذ ساعات، ولم يصدق أن البحث الذي يقوم عليه منذ عدة سنوات سيكون ذا فائدة اليوم.

كانت حبيبته تقف أمامه عارية، تظهر كل مفاتن جسدها، الذي بدأ بالذبول، أليس هذان نهديها اللذين طالما نظره إليهما، وصنعت أنسجة الخيال منه حلما صعب المنال، الآن هما أمامه ولكنهما ليسا كما كانا، فألقى عليها الغطاء وربطها بالحبل، وحملها إلى الأريكة الخلفية وكانت تنظر له وكأنها تعرفه وتحاول التذكُّر.

كان في أقصى درجات السعادة التي يمكن أن تفكر فيها، فلم يهمه تلك الديدان التي بجسدها محاولة الهرب من الحياة.

وصل لمنزله فحملها إلى شقتهما، والتي فرَّق الموت بينهما قبل سويعات من إتمام فرحهما، فلقد عُقد قرانهما منذ أيام، ولم يُرِد أن يلمسها قبل حفل الزفاف، وقبل أن يجتمعا معًا وللأبد.

أدخلها إلى الحمام الذي طالما كان يحلم بمشاركته إياها، أنزل المياه الدافئة على جسدها ولاحظ أنها تتمتع بها، وهدأت ملامحها بعد الذبول وكأنها بدأت ترجع للحياة مرة أخرى.

جلب روائح ذكية وغالية حتى يستطيع أن يزيل عنها تلك الروائح الكريهة، وحتى لا يشعر أن شيئًا قد حدث، فإنها زوجته مهما يحدث، أدخلها إلى غرفة النوم وربط يدها في السرير ودخل للمطبخ لكي يحضر لها طعامًا، مع أنه يحبُّها جدًّا لكنه ما زال يخاف منها، فلا يعلم ما ستكون قوة تلك المساحيق التي لم يجربها سوى على الحيوانات، فما زال يبحث عن الشباب الدائم وذلك لأنه متخصص تجميل.

أخذ الطعام الذي كان ذا رائحة شهية جدًّا ودخل إلى الغرفة ليجدها واقفةً أمام المرآة وممسكة في يدها صورهما، حاول أن يقترب منها، ولكن الأدرينالين بدأ يقتحم خلاياه ليعلن سيطرته التامة عليه.

وقف بعيدًا عنها مُخططًا في عقله كل ردود فعله عما سيحدث، ولكنها فاجأته عن طريق قربها منه وهي مبتسمة وكأنها تحاول أن تبكي فلا تستطيع.

أعطاها حينها مخدرًا قويًّا، ومن ثم بدأ يُدخلها إلى غرفة أخرى بها معدات كثيرة، وجلس يفعل أشياء عديدة ويعطيها إبرًا كثيرة، وكأنها سيارة دخلت لتوكيل صيانة خاصة لها، وكأنها لن يفهمها أحد في الكون سواه.

عندما استيقظت ونظرت في المرآة تفاجأت لأنها رجعت كما كانت، خرجت من الغرفة لتجده نائمًا على الأريكة، وتظهر عليه علامات الإرهاق، غيَّرت ملابسها لتُظهر مفاتن جسدها، ودخلت للمطبخ لتحضر له الطعام، وأيقظته ولكن الغريب أنها لم يكن لديها شهية لذلك الطعام.

عندما استيقظَ ووجدها بجانبه لم يصدق عينه، وبدأ يتحدث معها وهي تطعمه في فمه، وكأنها هي أيضًا كانت تتمنى حدوث ذلك.

بعد مرور وقت وهو نائم في حضنها طلبت منه فتح التلفاز لترى ما فاتها خلال موتها، وافق حتى يرضيها، فلم يكن على استعداد أن يضايقها مهما يكن السبب.

عندما فتح قناة الأخبار، كانت الأنباء تنتشر عن ظهور مخلوقات غريبة، الكثير منها مرتدٍ ملابسه، والأكثر تُحلُّلًا كما يرى في التلفاز هم العراة، كانت تظهر على ملامحه الفزع الشديد مما فعله، ولكنه لم يلاحظ فرحتها عندما وجدت أن بني جنسها أصبحوا أكثر عددًا وقوة.

قرَّر أن يذهب بالمصل لمعمله ليصنع أمصالًا عديدة قبل أن ينتشر ذلك الفيروس، ودخل إلى غرفته وحضَّر حقيبته، وهو واقف كانت هي وراءه تطلب منه أن يجلس معها يومًا إضافيًّا خصوصًا أنها تخاف عليه من بني جنسها.

لم ينتبه لآخر كلمة، وما زال مشغولًا بترتيب ورقه والمصل في حقيبته حتى فتحت زر القميص، ليظهر ملتقى الصدرين، فعندما لاحظه توقَّف تمامًا عن الحركة، وبدأ عقله يركز في ذاك الملتقى الذي طالما حيَّره.

اقتربت منه وقبَّلته، لكي تنسيه ما كان يرتب له، وحدث بينهما ما كان المفترض أن يحدث في ليلة الزفاف، ولكن كان هناك أشياء عديدة مقززة تظهر من جسدها بسبب ما أصابه من عفن خلال سُويعات تحلُّله.

فلقد كان ينتظر ذلك منذ ما يقارب من خمس سنوات عندما قابلها لأول مرة في البيت القديم، عندما كانت تنشر الغسيل فوق سطح العمارة.

استيقظ في الصباح ليجد نفسه مربوطًا بالحبل، حاول مرارًا وتكرارًا أن يتحرَّر من ذاك القيد ولكنه لم يستطع، دخلت الغرفة وهي ترتدي ملابس سوداء، ملابس جلدية، تنظر له في شفقة ممسكةً بحقيبته، ودون سابق إنذار أخرجت المصل لتضربه في الأرض لينكسر.

خفق قلبه تمامًا، وكأنه فَقَدَ أحد أطفاله في تلك اللحظة، نظر له في محاولة اكتشاف ماذا تنوي أن تفعل به؟

أخرجت من جانبها سكينًا واقتربت منه قائلة:

– حبيبي ستموت بعد قليل من مفعول السُّم الذي وضعتُه لك في الطعام أمس، أم تحبُّ أن أقتُلك بذلك السكين لكي أعطيك الفيروس لتستيقظ مرة أخرى وتصبح مثلي ومن بني جنسي ونعيش مع بعضنا البعض للأبد؟!

ابتسم وكأن هناك جزءًا بداخله أصبح راضيًا بما يحدث له ظالما هي معه فذلك يفرحه بشدة، وانطفأ الضوء فجأة عندما غُرزَ السكين في جسده، ولكنه عاد مرة أخرى بمشاعر مختلفة بعد فترة طويلة.

الفهرس

مقدمة	7
المجهول.. ظلام	11
الانتظار	23
فرقع لوز	33
شربيني	41
ملف	49
الاتجاه المعاكس	57
أنوثة بلا ثقة	65
الشاطيء الأحمر	71
قرار	79

ملابس داخلية 87

الابتسامة الخارقة 99

خاتم سليمان 107

العانِس 115

شنطة سوداء 131

دم أكثر من اللازم 139

الغريب الجنوبي 147

فراق 157

زومبي 167

زومبي

الزومبي ليس هو الإنسان الذي تم إحياؤه فقط، لأن كل مَن يَدفن بداخله مشاعر ومخاوف لا يريد إظهارها، فهو زومبي.
كل يوم نقابل في طريقنا زومبيًا، إبحث في كل من حولك، ستجد بينهم زومبيًا، ولكنه يريد أن يعيش فقط لأن الحياة بالنسبة له أعظم من أن تتوقف لمجرد أنه دَفَنَ جزءًا ما من مشاعره بداخله.
ستجد هناك مَن فَقَدَ حبيبته وأصبح يعيش لمجرد أن أَجَله لم يأت بعد، ولكنه في نظر نفسه قد مات عندما تركته.
كلنا زومبي..
فكلنا لدينا ذاك الشيء الذي ندفنه بداخلنا ونسير أشباه أحياء، أو كالموتى الأحياء...

Cover by *ahz_art

9789774885426

دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر
E-mail : daroktob1@yahoo.com 01111947957